ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٥ ، السنـــــة : ٤٩

جمادى الأولى ١٤٤٦هـ ، نوفمبر ٢٠٢٤م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

♦ ظاهرة الإلحاد أدهى وأمرُّ	التحرير	٣

كلمة العدد

♦ رقي المسلم منوط بصلاح دينه	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤

الفكر الإسلامي

♦ من ظلال التفسير	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله	٩

دراسات إسلامية

♦ الأخلاق الوضعيَّة	الأستاذ سعيد زايد	١٤
♦ من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله	١٩
♦ شبابُنا المثقف أمام الإيمَان والتدين	الشيخ نديم الجسر	٢٤
♦ صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	أبو عائض المباركفوري	٣١
♦ أهم الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله	الأستاذ عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع	٣٧
♦ خالد بن صفوان بن الأهتم يعظ هشام بن عبد الملك	الأستاذ خالد سيد علي	٤١
♦ الذين يسعون إلى الهلاك والدمار	الدكتور عمر سليمان الأشقر	٤٤
♦ صور عنيفة لمواقف الكافرين من الدعوة والداعية	الشيخ عبد الغني مير غني	٤٨

إشراقـــة

♦ رب عمل عظيمُ القدر وإن قَلَّ وَهَانَ	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٥٦

كلمة المحرر

ظاهرة الإلحاد أدهى وأمرُّ

يواجه المسلمون اليوم ظواهر وحركات مختلفةً بأشكالها وألوانها تستميت في تقويض أركان الإسلام وهدم بنيانه، وإطفاء نوره الذي أبى الله تعالى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢]. وأشد هذه الحركات ضررًا و أعظمها خطرًا على المسلمين، وأكثرها نيلًا من الإسلام هو الإلحاد الذي يتفشى اليوم في المجتمع الشبابي وخاصةً المثقفين منهم بالثقافة العصرية المادية التي عملت في خلق فراغ روحي في المجتمعات البشرية بشكل رهيب لم يكن يخطر بالبال في الماضي.

وهؤلاء الملاحدة يكفرون بالله تعالى واليوم الآخر، ويكذبون الأنبياء والرسل، ويجحدون بآيات الله، و يشككون في الكتب الإلهية والمعجزات التي أنزلها الله تعالى تأييدًا لنبوتهم ورسالتهم؛ ويتسترون وراء العلمانية وما يدعونه البحث العلمي الحديث الرصين المحايد الذي لايدور إلا في فلك الغرب إن خيرًا فخير و إن شرًا فشر. وكثير من هؤلاء قد تسربوا إلى الأنظمة التعليمية في الجامعات في كثير من بلاد المسلمين، وهم من بني جلدتهم، ويتكلمون بألسنتهم، يمرقون من الدين كما تمرق الرمية من السهم، لايَدَعون أقل شبهة – ولو كانت أهون و أوهن من بيت العنكبوت – في الإسلام إلا أثاروها وضخموها، وهذا ما خلق لهم جوًّا لهم ملائمًا للصيد في الماء الكدر، وبث سمومهم ونشر أفكارهم الزائفة وآرائهم الباطلة، وزرع الشكوك والشبهات في قلوب الشباب المسلم المثقف في أمن من الرقابة الإسلامية الواعية.

وارتَدَتْ حركة الإلحاد ثيابًا مختلفةً متنوعةً منذ بزوغ فجر الإسلام ليومنا هذا، فحين رأى الملحدون في العالم الإسلامي أنهم لايستطيعون ما يستطيعه إخوانهم في العالم الغربي من الصراحة في إبداء آرائهم الفاسدة، ونشر ضلالاتهم وعقائدهم الباطلة، والدفاع عنها جهرًا وعلنًا فإن المجتمع الإسلامي قد لايتحمله، تحايلوا وتظاهروا بالحب للإسلام، والغيرة عليه وعلى أهله وبأنهم مسلمون صادقون في الصميم، وإن كان لايحمل أحدهم في قلبه حبةً من خردل من إيمان، ويسعى جاهدًا أن يجد لكفره وفسقه أدنى مساغٍ، فيحاول أن يتمسك ولو بعود من قش يتشبث به الغريق، ولكن فلتات لسانه تكشف وتشي بما في ضميره من الكفر والنفاق، ويستجليه المثقف الصادق المخلص لدينه و للمسلمين ببصره وبصيرته: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد:٣٠].

فمن واجب أهل العلم والغيرة على الدين الإسلامي أن يقوموا قومةَ رجلٍ واحدٍ لمواجهة هذه الظاهرة؛ للقضاء عليها قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء، وقبل أن يتسع الخرق على الراقع.

إن فئةً كبيرةً من الشباب المسلم اليوم على شفا جرف هار، فلابد من أخذ حجزتها قبل أن تهوي في الإلحاد والزندقة، ولابد من انتشال من وقع فيه من هوته، وتنبيهه على ما يبثه هؤلاء الملاحدة من الأباطيل والأسمار، والسفسفات والمغالطات. اللّٰهم أرنا الحق حقًا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، وحسبنا الله ونعم الوكيل. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة: ١٧/ربيع الأول ١٤٤٦هـ = ٢١/سبتمبر ٢٠٢٤م)

رقي المسلم منوط بصلاح دينه

يعيش المسلمون اليوم وضعًا عجيبًا غريبًا من التخلف عن ركب الحياة، ومسايرة الأمم في مختلف المجالات بشكل عام بعد أن كانوا أئمةً وقادةً، وتسربت إليهم داء الأمم قبلهم من الخلاف والشقاق والتباغض والتدابر مما حذر منه النبي ﷺ أمته، فقال: «سيصيب أمتي داء الأمم» فقالوا: يا رسول الله، وما داء الأمم؟ قال: «الأشر والبطر والتكاثر و التناجش في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغي» (المستدرك ٧٣١١).

وفعلًا تحقق ما خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته، فاختلفت كما اختلاف الذين من قبلهم، وتفرقت في دينها فرقًا وأحزابًا، ولعن بعضها بعضًا، واتبعت سنن من قبلهم شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ، حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة حتى صارت إلى ما صارت إليه من الخزي و الخذلان والمهانة. إذًا ما الداء وما الدواء؟

يرى كثير ممن يتظاهرون بالنصح للأمة وإرادة الخير لها و الحرص على رقيها وازدهارها أن الداء هو قلة المال وعدم الإمكانيات عند المسلمين، ولو توفرت لهم لفاقوا الأمم الأخرى، و بزوا بها في جميع المجالات، فمن الواجب أن نضع خططًا واستراتيجيات تجلب المال الوفير إليهم. فهذا هو داء المسلمين وهذا دواؤه.

أ حقًا داء المسلمين يكمن في قلة المال وشح الإمكانيات؟ والواقع أن هذا ما يريده أعداؤنا منا، إنهم يمكرون الليل والنهار لصرفنا عن ديننا، وليكون المال أكبر همنا ومبلغ علمنا، فيهون عليهم استخفاف الأمة الإسلامية كما حكى الله تعالى عن رأس الطاغية فرعون ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤].

وهذه الفكرة يكذبها كل من التوجيهات النبوية والواقع الملموس، ويفندان هذا الرأي، ويسفهان هذا المذهب.

أما الحديث النبوي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه (برقم:١٣٧٥) عن عمرو بن عوف الأنصاري أن رسول الله -ﷺ-

بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله -ﷺ- هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النبي- ﷺ-، فلما صلى بهم الفجر؛ انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله-ﷺ- حين رآهم، وقال: «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟». قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم». وفي رواية: «وتلهيكم كما ألهتهم».

والواقع الملموس شاهد على أن الدول الإسلامية تحتل كمًّا هائلًا من الثروات الطبيعية المهمة، بدءًا من الغاز الطبيعي والبترول، مرورًا بالزراعة والمعادن وانتهاءً إلى الثروة الحيوانية والأسماك، ولكن هل تبوأت مكانتها المنشودة بين أمم العالم في رقيها وازدهارها؟ والتاريخ شاهد بأن المسلمين كلما صلح أمر دينهم صلح أمر دنياهم بقدره. وكلما قصروا في دينهم وتوجيهاته السامية خربوا دنياهم بقدره. فكانت الأمة في أوج قوتها وازدهارها المادي حين تمسكت بمبادئ دينها وتوجيهاته ومثله في كل نواحي الحياة، فكانت كلمتها مسموعةً وجانبها مرهوبًا، يحسب له العدو ألف حساب قبل أن تسول له نفسه اتخاذ خطوة تعارضها.

لننظر مدى تقيد المسلمين بدينهم وتمسكهم به في مختلف نواحي حياتهم. فالدين له خمسة مقومات: العقائد، والديانات والمعاملات والمعاشرة والأخلاق. وقد تسرب التقصير إلى جميع هذه المقومات الأساسية للدين.

يقول العلامة التهانوي رحمه الله المعروف بحكيم الأمة في شبه القارة الهندية: «نحن في وضع أسوأ بالنسبة لهذه المقومات الأساسية للدين فمن العقائد مثلًا التوحيد والرسالة، وقد دب الخلل والفساد إلى كثير ممن ينتمون إلى الإسلام في هذا الباب، فحينا يوجه الطعن إليهما بناءً على الفلسفة التخمينية، وحينا يرفعون أولياء الله تعالى إلى مكانة الأنبياء عليهم السلام، ويحلون الأنبياء إلى مكانة الألوهية حينًا آخر، حتى بلغ ببعض المسلمين الأمر إلى أن اعتبروا المرء أقرب إلى الله تعالى كلما كان أبعد منه، وبالتالي اتخذوا الفسقة والفجرة أولياء الله تعالى. والعياذ بالله منه.

والمقوم الثاني: الديانات، فمما لايخفى كم من المسلمين من يؤدون زكاة مالهم، وكم منهم من يصومون الشهر، وكم منهم من يحجون بيت الله تعالى وإن استطاعوا إليه سبيلًا.

والمقوم الثالث: المعاملات، التي أصبحت عند كثير من المسلمين خارجةً عن الشريعة، و مقطوعة الصلة بها، فلايرون بيع المعدوم حرامًا، ويستحلون الربا. وأصبح أكبر همهم جمع المال لايبالون من أين جاء، سواء جاء باقتطاع أرض غيره بظلم، وسواء بالإدلاء إلى الحكام ودفع الرشوة إليهم؛ كل ذلك لابأس به في نظرهم.

والمقوم الرابع: هو المعاشرة، ولاتسأل عن مساوئها، فهؤلاء مسلمون يأتون في أفراحهم وأتراحهم بما لايعلمه إلا الله تعالى من التقاليد الباطلة دون أن يتجشموا التوجه إلى عالم من العلماء للسؤال عن إباحتها من حرمتها، وإنما القول ما قالت المرأة في هذا الباب، فهي صاحبة الأمر في ذلك، وقد ورد في الحديث: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، وقِس عليه.

وأما المقوم الرابع: الأخلاق، فلا يخفى على أحد أن فساد الأخلاق لم ينجُ منه حتى العلماء والطلاب، ونجد الملتزمين بالدين يهمهم كثيرًا إعفاء اللحية، ورفع الإزار إلى أنصاف الساق، واللباس المطلوب شرعًا، وأما الأخلاق فقد تسرب إليها الفساد فكأنها بمعزل عن الشريعة. فكم يغتر الناظر إلى صورنا التي ظاهرها الزهد في الدنيا، وأما الأخلاق التي تشكل شعبةً من أعظم شعب الدين فليس لنا منها حظ يذكر. فتصرفاتنا كلها نابعة عن التكلف، وأفعالنا كلها مردها إلى التصنع والمجاملة»(خطبه ٣/٤٠٢).

والأخلاق والقيم في الواقع هي أساس الأعمال فمثلًا من تحلى بقيمة الجود والسخاء صدر منه الإنفاق في وجوه الخير، وحمل الكلّ والإعانة على نوائب الحق، ومن حرم هذه القيمة حرم ذلك كله. وكذلك من تحلى بقيمة الشجاعة صدر منه الإقدام والخوض في المعتركات، ومن يشينه الجبن أحجم عنه وثبطت همته عن ذلك.

والأخلاق تتنوع – حسب توجيهات الكتاب والسنة النبوية – على ثلاثة أقسام:

١- الخلق الحسن، وهو أول مراتب الأخلاق. وروى الإمام مالك في الموطإ (٧٦٦٦) عن يحيى بن سعيد، أن معاذ بن جبل، قال: كان آخر ما أوصى به رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين جعلت رجلي في الغرز، قال: «أحسن خلقك للناس معاذ بن جبل».

وأمـر الله تعـالى نبيـه إبـراهيم عليـه الـسلام بتحسين خلقه فروى الطبراني في المعجم الأوسط (بـرقم:٦٥٠٦) عـن أبي هريـرة، أن رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قـال: «أوحـى الله إلى إبـراهيم: يـا خليلي، حسن خلقك، ولو مع الكافر تدخل مدخل الأبرار، فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عـرشي، وأن أسـقيه مـن حظـيرة قـدسي، وأن أدنيـه مـن جـواري». وقـال الطـبراني: لم يـرو هـذا الحـديث عـن سـعيد المقـبري إلا أبـو أميـة بـن يعـلى، تفرد به مؤمل بن عبد الرحمن، ولا يروى عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا بهذا الإسناد».

٢- الخلق الكريم، وقد عبر عنه النبي ﷺ بقوله: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

٣- الخلق العظيم: و هو ما تحلى به النبي ﷺ، فقد وصفه القرآن بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

والحق أن أسباب تردي وضياع أمة من الأمم يرجع إلى ثلاثة أمور: الأول: الجهل، فإذا غلب على الأمة الجهل عميت عليها السبل والطريق فلاتكاد تراهـا. والثـاني: سـوء الخلـق، بـأن فاتهـا الثقافـة والآداب العامة، وتحولت إلى حيوان من الحيوانات. والثالث: التكاسل عن العمل، و التثبط عنه. فما من أمة من الأمم هلكت وضاعت إلا كان وراء ذلك هذه الأمراض الثلاثة الأساسية.

وعلى العكس من ذلك هناك ثلاثة مبادئ إذا التزمتها الأمة وأخذت نفسها بها كان مصيرها إلى الرقي والازدهار، وهي: العلم النافع: تستبين بها طرق النجاح والتوفيق في الدنيا والآخرة. والثاني: الأخلاق الحسنة، التي تعينها على السير على هذه الطرق. والثالث: العمل الصالح، الذي عليه عز الفضل والعز في الحياة.

فلينظر المسلم اليوم أين يقف من هذه المبادئ الأساسية؟ إنه من أمة كان إصدار تراخيص البيع والشراء يتطلب في العهد الفاروقي العلمَ الكافي بشؤون البيع والشراء والفقه في الدين، فضلًا عن معرفة العبادات والمعاملات.

إننا نحن المسلمين – وللأسف – أصبحنا معروفين بالجهل، والبعد عن العلم، فتجد مدنًا وقرىً وأريافًا يستعمرها مئات الآلاف من المسلمين، ويعوزها حتى عالم من العلماء الذين يرشدونهم إلى الأحكام الدينية، ومن أجل ذلك تسودها البدع والخرافات وتقاليد الآباء ثم يعدون هذه الجهالات والتقاليد والطقوس من الدين، والدين منها براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

فيخسرون دينهم ودنياهم. وتجد آلافًا مؤلفةً من المسلمين دون أن يحملوا وعيًا دينيًا أو شعورًا دنيويًا أو يقظةً صناعيةً أو تجاريةً أو سياسيةً أو اقتصاديةً. فإن دعائم ذلك كله راسية على العلم، فأنى يقوم لهم قائمة وهم صفر اليدين من العلم والثقافة.

والدارس لأحداث التاريخ يتجلى له أن أول هلاك الأمم ودمارها تمثل في شيوع الفواحش و المنكرات فيها وسيادتها على قلوبها، واختراع صور جديدة من العمل في إعراض عن الهدي النبوي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكأن مرض الجهل تفاقم تفاقمًا وأصبح العقل يستحلي الحنظل، و يستمرئ العسل، وهذا ما يجره الإصرار على سوء العمل والمران عليه، حيث تتحول الأعمال السيئة عادةً ثانيةً، فمن الطبيعي أن تتخلى الأمة عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والتواصي بالخير، فإذا مرنت الأمة على التخلي عن ذلك وأمرت بالمنكر ونهت عن المعروف، رأت السيئة حسنةً، والحسنة سيئةً والعياذ بالله منه (خطب حكيم الإسلام١/١٥٣وبعدها).

فالمسلم في حاجة إلى كثير من التثقيف والتهذيب وعلاج الأمراض الفتاكة التي تفت في عضد المجتمع الإسلامي. ولا بد من التحاكم إلى ثلاثة مبادئ أساسية تشكل حجر الزاوية في إصلاح الأمة، وهي:

١- تعليم الأحكام: أي: بيان جميع الأحكام التي يتوقف عليها كمال علم الأمة وتفكيرها ورقيها وازدهارها.

٢- التزكية أو تهذيب الأخلاق: بمعنى البحث عن الكيفيات الباطنية - التي تتوقف عليها استقامة القلوب- وإصلاحها.

٣- تلقين الحكمة: يعني ذلك - على بعض التفاسير- بيان مختلف جوانب حياة النبي ﷺ وأسوته الحسنة للأمة. وعلى مجموعها يتوقف تنسيق شؤون حياتها.

وهذه هي المبادئ التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]. (نفس المصدر).

فهذا هو سبب تخلف هذه الأمة عن ركب الحياة في مختلف المجالات، وهذا هو الداء و الدواء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

أي: سمعتم حال الدليل العقلي، فأتوا بالدليل النقلي على هذا التحريم الكاذب، هل عندكم شهود يقولون: إن الله تعالى حرم هذه الأشياء بحضرتهم؟ ولايتوفر مثل هذا الشاهد كما لايخفى. فإن قام بضعة كاذبين وقحين يشهدون بذلك فحذارِ أن تصغي إليهم أذنك، ولاتبال بأهوائهم. ذكر إلى هنا ما حرمه المشركون بأهوائهم، ثم كانوا يقدمون على هذا التحريم حيلًا وأعذارًا باطلةً. و فيما يأتي ذكر ما حرمه الله تعالى، وظل حرامًا من الأزل، وهؤلاء المشركون يَلِغُون فيه.

قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

كان العرب يقتلون أولادهم أحيانًا للفقر، بعلة أنهم لايجدون ما يَطعمون فأنى يُطعمون أولادهم، فقال: إن الله تعالى هو رازقكم ورازق أولادكم، وقال في آية أخرى: (مِنْ اِمْلاَقٍ) و(خَشْيَةَ اِمْلاَقٍ) أي: يقتلون مخافة الفقر، ففيه ذكر من لم يكونوا فقراء حالًا، ولكن يخافون أنه إذا كثر العيال فمن أين يرزقونهم، وكانت الفئة الأولى تخاف على رزقها قبل الخوف على رزق عيالها، وأما الفئة الثانية فكان يقلقها رزق عيالها أكثر، ولعله لأجله ذكر (نَرْزُقُكُمْ وَاِيَّاهُمْ) مع قوله: (مِنْ اِمْلاَقٍ). وقال في هذه الآية: (نَرْزُقُهُمْ وَاِيَّاكُمْ) مقرونًا بقوله: (خَشْيَةَ اِمْلاَقٍ). والله أعلم.

فائدة: (وَ لَا تَقْرَبُوا) لعل المراد به النهي عن مبادئ هذه الأعمال ووسائلها، فيجب الحذر من النظر إلى الأجنبية وجوب الحذر من الزنا.

فائدة: كان لابد من الاستثناء بقوله: (إلا بالحق)؛ فقد دخل فيه القاتل عمدًا، والزاني المحصن،

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

و المرتد عن الإسلام، كما صرحت به الأحاديث الصحيحة، وأجمع عليه الأئمة المجتهدون.

فائدة: ثبتت حرمة ما يلي في هذه الآية: (١)الشرك بالله (٢) عقوق الوالدين (٣) قتل الأولاد (٤) الفواحش كلها كالزنا وغيره (٥) القتل بغير حق.

وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

يحرم التصرف في مال اليتيم بغير الحق، ويجوز للولي التصرف فيه بالمعروف وبالحذر والحيطة. فإذا شب اليتيم وتحمل مسؤوليته، دفع إليه المال.

فائدة: أي: حاولوا امتثال الأوامر حسب وسعكم، وبهذا أمِرتُم، ولايكلف الله نفسًا إلا وسعها.

فائدة: أي: لايحول دون قول الحق قرابة ومحبة.

فائدة: واظبوا على أوامره ونواهيه، وأوفوا ما نذرتم لله تعالى أو حلفتم عليه إذا كان مباحًا.

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

أي: المواظبة على الأحكام المذكورة وإيفاء عهد الله تعالى اعتقادًا هو الصراط المستقيم الذي أمِرتم به في سورة الفاتحة. فقد هُديتم إلى هذا الصراط، والأمر إليكم في سلوكه، ومن اتخذ سبيلًا غيره ضل وغوى.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

يبدو أن الأحكام المتلوة في قوله: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) [الأنعام:١٥١] كانت مستمرةً دائمةً، واتفق عليها الأنبياء والشرائع كلها. ثم أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام التوراة التي تتضمن مزيد الشرح للأحكام. وأتم الله تعالى نعمته على أصحاب الخير في عهدهم بإنزال النعمة، وفصّل كل أمر يحتاجون إليه. وفتح أبواب الهداية والرحمة، ليستوعبه الناس، ويستيقنوا لقاء ربهم.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

أي: كانت التوراة على ما كانت، ولاتسألوا عن حسن وكمال هذا الكتاب -القرآن الكريم- الذي هو بين أيديكم بحسنه وجماله الظاهر الباهر، فطلوع الشمس دليل عليه. والناظر إلى بركاته الظاهرة والباطنة، وكمالاته الصورية والمعنوية يضطر إلى القول بما قاله الشاعر الفارسي ما معناه:

«إن ربيع عالم حسنه يجعل القلب والروح كليهما على نضارة، فأهل الظاهر نضرة وجوههم بظاهره، وأهل الباطن نضرة وجوههم برائحته».

فلامعنى للالتفات يمينًا وشمالًا. وإذا أردتم أن تأخذوا حظًا وافرًا من رحمة الله تعالى، فخذوا بهذا الكتاب الخاتم بقوة، واتقوا الله تعالى أن تعصوا شيئًا مما جاء في هذا الكتاب.

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

أي: نزول هذا الكتاب لم يدع للأميين العرب مجالًا للقول بأن معظم الكتب السماوية التي نزلت بالشرائع الإلهية إنما نزلت -فيما نعلم- على طائفتين – اليهود والنصارى-، وكانوا يتدارسونها بينهم، وينقلها بعضهم إلى العربية أيضًا، منهم ورقة بن نوفل وغيره، وأكب كثير منهم مدةً طويلةً على أن يحولوا العرب إلى اليهودية أو النصرانية، وأما نحن فكنا مقطوعي الصلة عن دراسة هذه الكتب وتدريسها. والمقصود هنا – بغض النظر عن بقاء ما كان يدرسه اليهود والنصارى- على حقيقته وصدقه – أن المخاطب في الأصل لهذه الكتب والشرائع كانوا بني إسرائيل، وإن كانت شهدت الدعوة إلى بعض أجزاء هذه الدراسة – كالتوحيد والمبادئ الدينية – توسعةً، وتم تعميمها للأمم الأخرى علاوةً على بني إسرائيل، غير أن الشريعة والكتاب السماوي الذي نزل بمجموع هيئته على أمة خاص ولمصلحتها، إذا كانت الأمم الأخرى وخاصة العرب – تلك الأمة الغيرى الأبية – غير حريصة على دراسته وتدريسه لم يكن ذلك مثار استبعاد، فكان لهم أن يقولوا: لم ينزل علينا كتاب سماوي وشريعة. وأما الذي نزل على أمة خاصة فلسنا على كبير صلة به، فكيف نُؤَاخذ على ترك الشريعة؟ وأما اليوم فلم يبق لهم مجال لمثل هذه الأعذار، فقد نزلت حجة الله تعالى وكتابه المنير وهدايته وأمطار رحمته العامة في بيوتهم، ليستفيدوا منه أولًا، ثم يبلغوا الأمانة الإلهية الأحمرَ والأسود، وسكان الشرق والغرب في حفظ وحذر؛ فإن هذا الكتاب لم يختص نزولها بأمة أو بلد، فالمخاطب به العالم كله. وقد وصلت رسالة الله تعالى العامة والأخيرة هذه إلى كل ناحية من نواحي العالم بفضل من الله تعالى وتوفيقه. ولله الحمد.

أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

أي: لعل سماع أحوال الأمم السابقة يُطمعكم، وتقولون: لو نزل علينا كتاب الله تعالى لكنا أحسن عملًا من الأمم السابقة، فقد أعطيتم كتابًا أفضل، فننظر كيف تعملون.

فائدة: فمن أظلم ممن يكذب بآيات الله تعالى ويعرض عن أحكامه أو يصد غيره بعد إذ جاء هذا الكتاب المنير؟.

تنبيه: ورد عن السلف معنيان لقوله: (صَدَفَ

عنها): المنع والإعراض، وحمله المترجم رحمه الله على المعنى الثاني وهو الإعراض.

هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨

أي: وصل أمر الله تعالى بالهداية إلى نهايته، وجاءت الرسل، ونزلت الشرائع، والكتب، حتى جاء كتاب الله الخاتم، فإن أعرضوا بعد ذلك فلعلهم ينتظرون أن يأتيهم الله تعالى أو يأتي ملائكته أو تأتي آية من آيات قدرته - مثل آية كبرى من آيات القيامة-، فاعلموا أن من آيات القيامة ما لو ظهر لم يقبل إيمان كافر، ولا توبة عاصٍ. وتفيد أحاديث الصحيحين أن هذه الآية هي طلوع الشمس من مغربها. أي: حين يريد الله تعالى أن يقضي على هذا الكون ويغير نظام العالم، ظهرت كثير من الخوارق العظيمة المناوئة لقوانين الطبيعة هذه، منها طلوع الشمس من مغربها لا من مشرقها، ولعل الغرض بالحركة المقلوبة و رجعة القهقرى هذه الإشارةُ إلى أن ما يتحكم من قوانين القدرة ونواميس الطبيعة في نظام الكون الحاضر، قد حان موعد إنهائها وتقليب نظام الشمس. وكأن الإيمان والتوبة لايقبلان منذ ذلك الوقت عند زهوق نفس العالم الكبير؛ فإنه ليس في الواقع وقت الاختيار، فكذلك عند طلوع الشمس من مغربها يؤمر مجموع العالم بأن لايقبل إيمان أحد ولا توبته. وذكرت بعض الروايات - بعد طلوع الشمس من مغربها - آيات أخرى منها خروج الدجال، وخروج الدابة وغيرهما، فالمراد بهذه الروايات أن ذلك حين يتحقق مجموع هذه الآيات. ولايتأتى ذلك إلا إذا تحقق طلوع الشمس من مغربها أيضًا، فيُغلق باب التوبة حينئذ، و لايتفرع هذا الحكم على الآيات آية آية. والملحدون في زماننا- الذين تعودوا إضفاء صورة الاستعارة على كل حدث غير عادي- يحاولون حمل طلوع الشمس من مغربها على الاستعارة، و لعل وقوع الساعة نوع من الاستعارة أيضًا عندهم.

تنبيه: قوله: (اَنْ تَاْتِيَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ اَوْ يَاْتِيَ رَبُّكَ) سبق تفسيره في منتصف الجزء الثاني من القرآن الكريم في قوله: (هَلْ يَنْظُرُوْنَ اِلَّآ اَنْ يَّاْتِيَهُمُ اللّٰهُ فِيْ ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ) [البقرة:٢١٠]، فليرجع إليه. وقوله: (كَسَبَتْ فِيْٓ اِيْمَانِهَا خَيْرًا) معطوف على قوله: (اٰمَنَتْ مِنْ قَبْلُ). و التقدير عند ابن المنير وغيره: (لَاينفع نَفْسًا إيمانها أو كسبها خيرًا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا) أي: لاينفع إيمان من لم يؤمن من قبل، ولاينفع كسب من لم يكسب خيرًا من قبلُ. والمعنى لاتقبل توبته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩

ذكر في الركوع السابق (قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) [الأنعام:١٥١] الأحكام ثم قال: (وَاَنَّ هٰذَا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيْمًا فَاتَّبِعُوْهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهٖ) [الأنعام:١٥٣] أي: الصراط المستقيم واحد من الأزل، وسبل الغواية كثيرة تنحرف عنه. وسلك الأنبياء والرسل كلهم من حيث المبدأ صراطًا واحدًا، ودعوا الناس إليه (شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّيْنِ مَا وَصّٰى بِهٖ نُوْحًا وَّالَّذِيْٓ اَوْحَيْنَآ اِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهٖٓ اِبْرٰهِيْمَ وَمُوْسٰى وَعِيْسٰٓى اَنْ اَقِيْمُوا الدِّيْنَ وَلَا تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ) [الشورى:١٣]. وأصل الدين لم يختلف عندهم. وما تسرب من الاختلاف إلى الفروع الشرعية بالنظر إلى الزمان والمكان و الأحوال الخارجة ليس تفرقًا؛ بل يشكل تنوعًا لوسائل وأسباب تحقيق مقصد مشترك واحد في لون يناسب كل وقت وزمن. والدين الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام لم يخالفه حتى كتاب موسى عليه السلام؛ بل نزل تكميلًا وتفصيلًا له، وفي النهاية نزل القرآن الكريم الذي يتمم جميع الكتب السابقة ويصدقها، ويحفظ ما فيها من المعارف والعلوم. ثم ذكر خلاله حال المعرضين عن هذه الكتب والشرائع عاد بقوله: (اِنَّ الَّذِيْنَ فَرَّقُوْا دِيْنَهُمْ) [الأنعام:١٥٩] إلى أصل المقصود أي: طريق الدين الإلهي – الصراط المستقيم- واحد. والذي يقطعون أصل الدين ويفرقونه فتعرضوا للعنة التحزيب، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو أدعياء الإسلام، ممن تقرر أن يمزقوا رداء العقائد الدينية في المستقبل، لستَ على شيء معهم، فهم ممن (فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهٖ) [الأنعام:١٥٣]، فتبرأ منهم، وأعرِضْ عنهم واثبت على صراط ربك المستقيم. وفوض عاقبتهم إلى الله تعالى، فإنه يعذبهم في الدنيا والآخرة بإفسادهم الدين. ويقول الشاه- عبد القادر رحمه الله – وهو يشرح قوله: (فرقوا دينهم): لايجوز التفريق فيما يجب الإيمان به- أي أصول الدين-، ولابأس بأن تختلف الطرق والوجوه فيما يرجع إلى العلم أي فروع الدين.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

نبَّه في قوله: (ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ) [الأنعام:١٥٩] على المجازاة على أفعالهم الشنيعة بالإضافة إلى بيان قانون المجازاة على كل حسنة وسيئة بأن جزاء الحسنة لايقل عن عشرة أضعاف. وجزاء السيئة لايزيد عن سيئة واحدة، أي: من كسب حسنةً أثيب عليه بعشرة أمثالها على أقل تقدير، ولانهاية للمضاعفة (وَاللّٰهُ يُضٰعِفُ لِمَنْ يَّشَاۗءُ) [البقرة:٢٦١]. ومن كسب سيئةً لم يتجاوز جزاؤها ما قُدِّر من العقوبة على السيئة الواحدة. والتخفيف عنها أو العفو الكلي عنها يرجع إلى الله تعالى، فأنى يجوز الظلم والاعتداء عند من بلغت وفرة رحمته هذا المبلغ.

الأخلاق الوضعيَّة

بقلم: الأستاذ: سعيد زايد

تتضمن الأحكام الخلقية تقديرًا لأفعال الناس، فنحن عندما نصف فعلًا ما بالحسن أو بالقبح، بالخير أو البشر، فإننا بذلك لا نشرح كيف وقع هذا الفعل ولا كيف تم، وإنما نعبر عما له من قيمة في نظرنا. فكل تقدير لفعل ما يفرض وجود شعور في أنفسنا يدفعنا إلى الحكم على هذا الفعل، وذلك سواء احتفظنا بهذا الحكم في ضمائرنا أو عبرنا عنه بالكلام، أو بأية وسيلة أخرى من وسائل التعبير.

ويفرض التقدير الخلقي من ناحية أخرى أن لدينا قاعدةً خلقيةً هي بمثابة مثال نقيس عليه الفعل وعلى حسبه نحكم عليه، وهذه القاعدة الخلقية عبارة عن العواطف والميول والنزعات التي تعبر عنها الأحكام الخلقية.

أما حد التقدير الأخلاقي فإنه الذي يؤثر على مضمون الأخلاق، فهو الذي يميز أي الأفعال وأي الأنواع من وجهة نظر الحياة وصورها، ينبغي أن تسمى حسنة أو قبيحة. فالقاعدة إذن هي المبدأ الذاتي في الأخلاق، أما الحد فمبدؤه الموضوعي.

وتتوقف طبيعة التصور الأخلاقي على القاعدة التي يفرضها هذا التصور، وعلى الحد الذي يصطفيه، ثم على النسبة بينهما. ومع ذلك، فإن بعض الناس يصدرون أحكامهم الخلقية دون بصر بما تستلزمه هذه الأحكام من مبادئ، فالبصر بالمبادئ من خواص الوعي ا لراقي الذي يستيقظ بفضل التأمل والتفكير والشك.

وقد جرت العادة على ألا يقتصر على إصدار أحكام خلقية خاصة بالحسن والقبح، أو الخير والشر، على من يتصف بيقظة الفكر والنظرة العلمية، ولكننا أمام ذلك لا ينبغي أن نعتبر كل حكم غير صادر من هؤلاء حكمًا غير صحيح، فهناك أحكام لها صحة شخصية وأهمية عملية تفيض دائمًا عن شعور وميل قويين لا يدعان لصاحبهما راحةً إلا بعد التعبير عنها.

ومن مظاهر الحياة النشطة المملوءة بالحيوية ألا نضطر إلى الذهاب مذهبًا بعيدًا مع إجهاد الفكر في البحث عن مبادئ لما نحن مقبلون على تقريره في أمورنا الهامة؛ بل ينبغي أن تكون طبيعتنا هي التي تعمل وتحدد، ولا نقف عند الحجج التي ننتهي إليها في ساعات الفراغ، فالحياة الجارية لا تدع لنا في كل المناسبات وقتًا للتفكير والتأمل بل تستلزم عادةً، إظهار الحكم الأخلاقي في لحظة عارضة خاطفة.

وحتى على فرض أن تفسح لنا الحياة الوقت الكافي والقدرة على التفكير، فلا نأمن ألا تكون ميولنا ومشاعرنا هي التي تقود الفكر – بدون وعي – إلى ما تنزل إليه، وذلك بدلًا من أن تسير في أثره وتتبع أمره ونهيه. فقد هدم علم النفس – منذ زمن طويل – القول بأن العقل هو الذي يتلوى فينا السلطان القاهر؛ إذ كثيرًا ما يسير وراء الميول. فإن صح أن يكون العقل الخالص هو الذي يظهر في مجال الرياضيات والمنطق، فلا بد أن نعترف بأن صوته من الضعف بحيث لا يكاد يسمع في أكثر الأمور المتعينة. وأكثر من ذلك يصح لنا القول بأن التفكير والنقد في هذا المجال يحتلان جانبًا خطيرًا فيصبحان مضرين، فهما يسلباننا الثقة والسكنية الغريزية التي نستفتح بها منهجنا في الحياة، وحتى إذا لم يشلنا الفكر بما يثير من شكوك، فانه بلا شك يوهن من قوانا، فلا نستطيع أن ننطق بأحكامنا بنفس الاطمئنان؛ بل ربما توقفنا في الحكم حين تبدو لنا استحالة الوصول إلى قرار فاصل.

فالأحكام الخلقية لا تسير على منهج التطلع والمعرفة النظرية، فهي في الواقع ليست مجرد ظواهر انفعالية؛ بل هي تفعل في شعورالشخص الذي يصدر الحكم، كما تفعل لدى غيره من الناس فعلًا ذا أثر كبير، وهي أحكام ليست مسببة فحسب؛ بل قد تصبح هي نفسها أسبابًا محركةً.

ويظهر هذا بوضوح إذا تجاوزنا حيز الفرد، ذلك أن مشاعر الفرد وميوله تقررها طبيعة النوع بأكمله وظروفه الحيوية وتقاليده، فالفرد يتلقى عن النوع كثيرًا من قواه وغرائزه. وبعد ذلك يدفعه تعليمه، من حيث هو عضو في أسرة وشعب ودولة، إلى جو عقلي معين تعرض له فيه عادات وميول ونزعات وواجبات يتلقاها عن غير إرادة، وينزلها منزلة التفكير والوزن والاختيار.

فطريقة الفرد في التفكير والشعور والفعل طريقة موروثة عن الأجيال السابقة، وغرائز الشعب وعاداته المتداولة أو تقاليده، والمحاكاة والممارسة من غير إرادة، هي قاعدة الأخلاق عند الفرد قبل أن يتدخل تفكيره في ذلك.

وإرادة الفرد متجهة دون أن يشاء ذلك، إلى جهات معينة، وهذا الاتجاه غير الإرادي لها هو الذي يقرر مصالح حياته وقواها، وهذه الأخيرة هي التي تقرر أحكام الفرد في الحسن والقبح أو الخير والشر.

فالفضائل تولد قبل أن تكون لها أسماء وقبل أن تقوم مقام الوصايا، وذلك بأنه في الأحكام الخلقية وفي المظاهر الانفعالية القوية التي نعبر بها عن تقدير لقيمة الأفعال الإنسانية، ليس لدينا التعبير عن فكر الفرد المعين فحسب، ولكن أمامنا نتيجة تجارب النوع بأكمله، والفرد لا يصنع بنفسه أخلاقه.

ويدل اسم الأخلاق الوضعية على الأخلاق الواقعية الفعلية للنوع والحياة، وهي تظهر في الأحكام وفي المبادئ الجارية التي ترتدي ثوب

الأمثال، وقد تكون مظاهر دائمة للحكمة العملية لأمة، أو لشعب، أو لجماعة دينية، وقد تتمثل في الرأي العام فيكون وجودها قصيرًا نسبيًا. وتظهر هذه الأخلاق أيضًا عند أهل القدوة، مثل أصحاب الديانات والأبطال وواضعي الشرائع وغيرهم ممن يعتبرهم الناس رمزًا ساميًا للإنسانية الصحيحة، ويحتوي التشريع الوضعي نفسه على جانب من هذه الأخلاق، ولذلك يظهر الغضب وأحيانًا الثورة من الرأي العام ضد أي تصرف مخالف لها. وقد يأخذ رد الفعل صورة التعويض أو التكفير وما إلى ذلك مما تستلزمه التهدئة، ويسمى هذا باسم الجزاء، والجزاء الأخلاقي هو كل ما يستحق على فعل يرتضيه الضمير، وجاء وفق الفضيلة.

فالفضيلة هي الخلق الطيب، وهي عادة الإرادة، والإنسان الفاضل هو من حباه الله خلقًا طيبًا فعمل وفق ما تأمر به الأخلاق، فالفضيلة صفة نفسية واجهتها الخارجية هي الواجب، فمن يؤدي الواجب يكون حائزًا على الفضيلة، وصاحب الفضيلة هو من يعمل الخير ويتحمل المشاق في سبيله.

وتختلف الفضائل بالنسبة إلى الأمم من حيث الأهمية، فإذا كانت الشجاعة أهم فضيلة في الأمة المحاربة، فإن العدل خير فضيلة في الأمة الآمنة، والأمانة خير فضيلة في الأمة التي تعتمد في اقتصادها على الصناعة. وهكذا يختلف ترتيب الفضائل في الأمة الحاكمة عنه في الأمة المحكومة، وفي الأمة المتمدينة عنه في الأمة البدوية.

ومفهوم الفضيلة الواحدة أيضًا يختلف باختلاف الأزمنة والعصور، فإذا كان اليونان القدماء يفهمون الشجاعة على أنها الصبر على تحمل الآلام الجسمية، فإن العصور الحديثة قد فهموها بشكل أعم حتى أنها شملت التعبير عن الرأي من غير خشية، ويمكن القول بأن فضيلة العدل قد تطور مفهومها حسب تطور الأمم عقليًا واجتماعيًا.

وتختلف الفضيلة باختلاف حالة الفرد وعمله، ففضيلة الكرم مهمة عند الغني وليست لها نفس الأهمية عند الفقير، وتختلف فضائل المسن عن فضائل الشاب، وترتيب فضائل المرأة عن ترتيب فضائل الرجل، وتتباين فضائل العالم عن فضائل التاجر.. وهكذا.

ولكن مهما كان الأمر فإن كل إنسان مطالب بفضائل عامة كالصدق والعدل والرحمة والغيرة وإنكار الذات وحب الخير والتضحية في سبيل الوطن.

وهناك بعض الفضائل تعد أشمل من غيرها، فالعدل يشتمل على الأمانة وتدخل الأمانة في مفهومه، وتنضوي القناعة تحت العفة. وتتولد بعض الفضائل من فضيلتين أو أكثر، فالصبر ينتج من العفة والشجاعة، والحذر يتولد من العفة والحكمة.

وقد ذهب سقراط إلى أنه لا فضيلة إلا المعرفة، فالإنسان لا يعمل الخير إلا إذا عرف ما هو الخير، وكل عمل يصدر عن غير علم بالخير فلا يعد خيرًا

ولا فضيلةً، فالعمل الخير لا بد أن يكون مؤسسًا على العلم ومنه ينبع، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن علم الإنسان بخيرية الشيء هو الدافع الحتمي على عمله، وكذا معرفته بضرر شيء هو الدافع الحتمي على تركه. ولا يوجد إنسان يعمل الشر وهو عالم بنتائجه فكل الشرور ناشئة إذن عن الجهل. ذلك أن كل إنسان خير بطبيعته، بقصد الخير لنفسه ويكره لها الشر. ومن المحال أن يفعل الإنسان الضرر وهو عالم به فالخطأ منشؤه الجهل، فإذا عرف الشرير نتائج عمله السيء أقلع عن هذا العمل، وإذا عرف نتائج الأعمال الحسنة تعود على فعل الخير، فالإنسان الصالح هو الذي يعلم ما يجب عليه، والملك الصالح هو الذي يعرف كيف يحكم الناس حكمًا عادلًا.

فسقراط – إذن – يرى أنه ليس هناك في الحقيقة إلا فضيلة واحدة هي المعرفة أو الحكمة وكل ما عداها من الفضائل مظاهر لها فالشجاعة والعفة والعدل وما عداها من فضائل ليست إلا مظاهر للمعرفة.

ورأى شيخ الأكاديمية الفيلسوف أفلاطون أن الفضيلة الحقة هي العمل الخير الذي يصدر عن علم بما هو الحق ولما كان هو الحق، فهي ليست مجرد عمل الحق؛ إذ أن العمل الحق قد يصدر عن أساس باطل. وقسم أفلاطون الفضيلة إلى: فضيلة فلسفية، وفضيلة عادية، والأولى هي العمل الخير الذي أسس على العقل، وصدر عن مبدأ: اعتنق بعد تفكير، أما الثانية فهي العمل الخير الذي نشأ عن عرف أو عن شعور طيب، ولذا فإنها تسمى فضيلة العامة، يعملون الخير؛ لأن الناس يعملونه من غير تفكير في علة خيريته، فهي تشبه – في رأي أفلاطون – فضيلة النمل والنحل ونحوهما فهي تعمل أعمالًا طيبةً لا على علم. ويستطيع الإنسان أن يرقى إلى الفضيلة الأولى أي الفضيلة الفلسفية بعد أن يمر بمرحلة الفضيلة العادية أو فضيلة العامة، ولا يأتي ذلك عن طفرة؛ بل بممارسة العلم والفهم.

ورأى أفلاطون أن الفضائل تخضع لأصول أربعة، هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ففي الإنسان قوى ثلاث هي: القوة العاقلة، والقوة الغضبية، والقوة الشهوية أو البهيمية. فإذا اعتدلت القوة العاقلة نشأ عنها فضيلة الحكمة، وإذا اعتدلت القوة الغضبية نشأ عنها فضيلة الشجاعة، وإذا اعتدلت القوة الشهوية نشأ عنها فضيلةالعفة، وباعتدال الفضائل الثلاث تنشأ فضيلة العدل؛ إذ أن العدل هو الذي تتصف به النفس عند أداء هذه القوى الثلاث وظائفها باعتدال، وتعاون كل قوة مع الأخرى.

وذهب أرسطو إلى أن جماع الفضائل هو «خضوع الشهوات لحكم العقل» أو «تسليم زمام الشهوات للعقل يقودها». فالفضيلة لها عنصران: العقل والشهوة، فلا بد من شهوة أولًا كي تضبط وتكون الفضيلة، فمن يزهد ويقتلع شهوته من جذورها إنما يضيع فضيلته، فالفضيلة شهوة

موجودة في الإنسان يضبطها العقل، أو هي فضيلة معتدلة. فهناك طرفان ينبغي تجنبهما: أولهما محاولة استئصال الشهوات، والثاني إرخاء العنان لها، والفضيلة هي الاعتدال بحيث لا تطغى الشهوات على العقل، ولا يطغى عليها فتستأصل، ومن هنا ظهرت نظرية الأوساط عند أرسطو، فكل فضيلة وسط بين حدين أو بين رذيلتين: الإفراط والتفريط، فالشجاعة – مثلًا – وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين السرف والبخل، والعفة وسط بين الفجور والخمود... وهكذا..

ونحن إذا تأملنا في رأي سقراط حين يؤسس الفضيلة على المعرفة نراه محقًا في ذلك فلا يكون الإنسان فاضلًا حتى يعرف الخير ويقصد إلى عمله، ولكنه ليس محقًا من الوجه الآخر فقد يعرف الإنسان الخير ويقصد إلى عمله، ولكنه ليس محقًا من الوجه الآخر فقد يعرف الإنسان الخير ويتجنبه؛ بل إنه قد يعرف الشر ويأتيه، فالمعرفة هنا ليست كافيةً في حمل الإنسان على الفعل؛ بل لا بد أن تصاحبها إرادة قوية فخرج المعرفة إلى حيز التنفيذ. فعلى حد قول أرسطو في نقده لسقراط أنه نسي أن نفس الإنسان ليست مركبة من العقل وحده؛ بل تشتمل أيضا على العواطف والشهوات، ولذا فليست كل أعمال الإنسان خاضعةً لحكم العقل وبالتالي تكون أعماله أحيانًا ليست متفقةً مع المعرفة.

وكذلك أفلاطون عندما رأى أن اعتدال القوة العاقلة ينشأ عنه فضيلة الحكمة، قيل في ذلك: إن الحكمة عندما نفسرها بالمعنى الواسع نراها تشتمل على جميع الفضائل من شجاعة وعفة وعدل، وغير ذلك من فضائل.. فكل شيء لا بد أن يتصف بالحكمة ليكون فاضلًا.

وقد اعترض على أرسطو بأن «الوسط» في قوله: الفضيلة وسط بين حدين، يفهم منه «المنتصف»، وليس ذلك بصحيح. فالمنتصف ليس هو المكان الذي تتمركز فيه الفضيلة وليس من اللازم أن تكون على بعدين متساويين من الشرين أو الرذيلتين، فالكرم مثلًا أقرب إلى نقطة السرف منه إلى نقطة البخل وكذا الشجاعة أبعد عن الجبن منها من التهور. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن هناك كثيرًا من الفضائل لا تكون أواسط بين حدود، كالصدق مثلًا، فليس وسطًا بين كذب وشيء آخر، فليس هناك إلا كذب أو صدق، وأيضًا العدل لا يمكن أن نضعه في وسط جور ورذيلة أخرى، ولقد شط ابن مسكويه حين وضعه بين الظلم والانظلام فما الانظلام إلا أثر الظلم.

وعلى كل حال فإن كثيرًا من المحدثين لا يرضيهم هذا التقسيم للفضائل، ووضعوا لها تقسيمات أخرى فقالوا: إنها إما شخصية وإما اجتماعية وإما دينية، فالأولى هي التي تنظم حياة الفرد وتعادل بين ملكاته وقواه وترقى بها، والثانية هي التي ترسم حياة الوفاق والمحبة بين أفراد المجتمع، والثالثة هي ما يأمر به الدين في كتابه المنزل وسنة رسوله الكريم.

من تـاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١٢٤)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)

ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

٦- الشيخ حبيب الرحمن:

خلف الشيخ فضل الرحمن، أكمل دراسته عن آخرها في دارالعلوم، وكان بحرًا في العلم، وأديبًا كبيرًا في اللغة العربية. ويعتبر حنكته وتدبره وإدارته مضرب المثل في تاريخ دار العلوم. ولخدماته وكفاءاته التي منحها الله تعالى إياه يد كبيرة في رقي دارالعلوم.

واحتاجوا – لكثرة أشغال الحافظ محمد أحمد، وكذلك للرقي بدارالعلوم- إلى رجل كفء يعين الحافظ أحمد على الشؤون الإدارية، واقتراحات الرقي. فلم يكن أليق به منه. فحملوه – رغم إبائه- على قبول منصب نائب رئيس دارالعلوم، التي كان من سعادتها أن حظيت برئيس إداري يقظ مخلص، وبلغ من شغفه بالشؤون الإدارية أن كان يصرف معظم أوقات ليله ونهاره فيها. فقام بتنسيق قسم إدارة الجامعة وإحكامه بصورةٍ جعلت النواب صدر يار جنك بهادر- حين زار دارالعلوم للنظر في حساباتها المالية – في حيرةٍ شديدةٍ حين رأى كيف احتفظ هذا القسم بأوراق حسابات حتى فلس وفلسفين وإيصالاتها في ملفاتٍ منظمةٍ مرتبةٍ. يقول النواب يارجنك بهادر: لم تكن ورقة من الأوراق طلبناها إلا عرضوها علينا على الفور. والرقي الذي شهده عهد الحافظ أحمد يرجع في الواقع إلى مرافقة الشيخ حبيب الرحمن. فقد ظل له ساعدًا أيمن، ومحل ثقته ونائبًا عنه.

واستقال الحافظ أحمد عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م لكبر سنه عن منصب المفتي الأعظم في إمارة حيدر آباد فتعين في منصبه خلفًا عنه. ثم شهدت دارالعلوم اختلافاتٍ داخليةً فسرعان ما اضطر إلى اعتزاله لهذا المنصب، وكان الشاه أنور الكشميري والمفتي عزيز الرحمن والشيخ شبير أحمد اعتزلوا دارالعلوم/ديوبند

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

مع جماعة كبيرة من الطلاب، فكان وضعًا حرجًا جدًا، ولكن لم تتزعزع أركان دارالعلوم لعزيمته واستقلاله وهمته وجرأته وفهمه وتدبره.

ومن الظن السائد أن الشيخ حبيب الرحمن - تلك الشخصية الفريدة من كل النواحي- لو شغف بسياسة البلاد شغفه بدارالعلوم لجاء أعظم قيادي سياسي في الهند. وكان مما أوصى به شيخ الهند: على جمعية علماء الهند أن تتمسك دائمًا برجلين. وكان أحدهما الشيخ حبيب الرحمن. فكان خير مستشار لجمعية علماء الهند. وشهدت جمعية العلماء حفلة في مدينة «كيا» من ولاية بيهار عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م، واختبر فيه رئيسًا لها. ولقيت كلمته الرئاسية قبولًا عامًا؛ بل نظرت الأوساط السياسية إلى أهميتها السياسية نظرةً ملؤها الإعجاب والتقدير.

والإكثار من المطالعة جعله واسع الأفق جدًا، وكان الشاه الكشميري يقول: «لو تأثرت بعلم أحد لتأثرت بعلم الشيخ حبيب الرحمن».

وكان الأدب العربي والتاريخ هوايةً له، واشتهر بسعة نظره في هذه العلوم. ومن أعماله الخالدة ما يلي:

١- قصيدة لامية المعجزات: تشتمل على ثلاث مئة بيت في مديح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سرد فيها مئةً من معجزات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأسلوب فصيح بليغ للغاية. ونقل الشيخ محمد إعزاز علي الأمروهوي - المتوفى١٣٧٤هـ- الأبيات العربية إلى الأردية السلسة.

٢- إشاعة إسلام:كيف انتشر الإسلام في العالم؟ ردًا على هذا السؤال قدم في نحو خمس مئة صفحة قصصًا تاريخيةً عملت على نشر الإسلام لما لها من جاذبية نفسية.

٣- تعليمات إسلام: تحدث الكتاب عن طبيعة الحكومة في الإسلام، وبين مدى وجوب التشاور لأمير الجماعة، وذكر في هذا الخصوص أن الأمير إذا حظي بالثقة الكلية استغنوا عن تعداد الأقلية والأكثرية، وأما إن عدم الأمير هذه الثقة فلابد من اعتبار الأكثرية لتمشية الأمور.

٤- رحمة للعالمين: كتاب غالٍ في سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللأسف لم يكتمل. وما تم منه يشكل زيادةً قيمةً في فهرس مؤلفات سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولم يشهد هذا الكتاب النورَ بعدُ.

كان الشيخ حبيب الرحمن نحيف الجثة جدًا، وطعامه أقل قليل يبعث على العجب و الحيرة. و رغم هذا الضعف كان يتمتع بعزيمة وهمة متناهية.

وتوفي بعد موت الحافظ أحمد بأربعة عشر شهرًا تمامًا في ٤/رجـــب عـــام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م إلى الـــدار الآخرة، وترك دارالعلوم تثني عليه للأبد. نوَّر الله مرقده.

٧- الشيخ المقرئ محمد طيب:

حفيد العلامة النانوتوي رحمه الله، ولد عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، وأرخوا اسمه بـ(مظفر الدين)، وألحِقَ بدارالعلوم وهو ابن سبع سنوات. واحتفلوا بإدخاله إلى الكُتاب في جمع حاشد من الصالحين، فحفظ القرآن الكريم وجوَّده خلال مدة قليلة عامين، ثم قرأ خمس سنوات في الصفوف الفارسية، ثم بدأ المنهج الدراسي العربي، وتخرج فيه وحصل على شهادة الفضيلة عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م. ونظرًا إلى نسبته الأبوية ساهم الأساتذة على مستوى أعلى وأسلوب خاص في التعليم والتربية. وله إسناد الحديث عن مشاهير العلماء والأساتذة. فعلامة العصر الشيخ محمد أنور الشاه الكشميري شيخه الخاص في علم الحديث. ونال الخلافة عن العلامة أشرف علي التهانوي عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

وبعد أن تخرج في العلوم والفنون بدأ التدريس في دارالعلوم، وسرعان ما أولع به الوسط الطلابي لما له من علم وفضل وذكاء ونسبة أبوية وجاه. وعين نائبًا لرئيس دارالعلوم في أوائل عام ١٣٤١هـ/١٩٢٤م، واستمر عليه حتى أوائل عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٨م بإشراف من والده، والشيخ حبيب الرحمن في مساهمة في الشؤون الإدارية بدارالعلوم. ونصبَ رئيسًا لدارالعلوم في وسط عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م حين توفي الشيخ حبيب الرحمن. وأكدت التجارب السابقة وحسبه ونسبه أنه يحمل القدرة على إدارة دارالعلوم على أتم وجه. فسرعان ما لقي القبول والتعظيم في البلاد بعد أن ولي منصب الرئاسة لعلمه وفضله ومكانته العائلية، مما عاد بالنفع والخير على عظمة دارالعلوم وصيته. فشهدت دارالعلوم في عهد إدارته رقيًا وازدهارًا بارزًا. وكانت تضم دارالعلوم حين ولي إدارتها عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م ثمانية أقسام، فارتفع هذا العدد إلى (٢٣) قسمًا. وكانت ميزانية دارالعلوم حينئذ (٥٠٢٦٢) روبية سنوية، وارتفعت في عهد إدارته إلى (٢٦) مئة ألف. وكانت دارالعلوم تضم عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م (٤٥) طاقمًا إداريًا، فارتفع عددهم إلى مئتين. وعدد الأساتذة يومئذ كان (١٨)، فارتفع هذا العدد إلى (٥٩)، وكان عدد الطلاب (٤٨٠) فارتفع عددهم إلى نحو ألفين. كما شهدت الأبنية أيضًا

زيادةً ملموسـةً. فشهد عهد إدارتـه إقامة أبنية دار التفسير، ودار الإفتاء، ودار القرآن، والمطبخ الجديد، ودارالحديث الفوقانية، والجزء العلوي من المسجد، وباب الظاهر، والجامعة الطبية، وسكن طلابي ذو طابقين، ودارالضيافة الشامخة، وصالات المكتبة العريضة الواسعة، والسكن الطلابي الجديد، وإفريقي منزل، وثلاثة فصول دراسية بالقرب من المطبخ. وكان المبنى الذي يشتغل فيه العلامة النانوتوي رحمه الله بالتدريس والإفادة والتلقين في مسجد «تشته» قد تطرق إليه يد الخراب والدمار لامتداد الزمان، فأعيد بناؤه مرةً أخرى.

والحاصل أن جميع شعب دارالعلوم شهدت الرقي الملموس في عهده، واعترف المجلس الإداري والمجلس الاستشاري بدارالعلوم غير مرة بخدماته غير العادية، ووافقا على عدد من الاقتراحات تقديرًا له، ونشط الشيخ رغم كبر سنه في إضاءة مصباح دارالعلوم نشاط الشاب اليافع.

وكان الله تعالى منحه ملكةً وقوة النطق في فن الخطابة والوعظ علاوةً على التدريس والإفادة العلمية، وكانوا يستمعون لخطبه حتى في أيام دراسته برغبة وشوق في التجمعات الشعبية. وكان لايمنعه شيء ولايصيبه رهق وتعب لو ألقى كلماتٍ بضع ساعاتٍ متتاليةٍ. وكان له مكنة كبيرة في شرح حقائق الشريعة وأسرارها وإيجاز المواد. وكانت الفئة المثقفة الجديدة تحظى بصفة خاصة بأسلوبه العلمي والبياني الحكيم. ولقيت خطبه قبولًا واسعًا في جامعة المسلمين/ عليكره، وغيرها من الجامعات العصرية. ونشرت جامعة المسلمين /عليكره بعض خطبه القيمة. ولاتخلو منطقة من مناطق البلاد لم تقرع أسماعها خطبه ومواعظه. وكانت خطبه السلسلة الخلابة تمر ببحر العلم العميق فلاتسأل عن صمت الأمواج والتيارات.

ونظروا إلى خطبه في حفلات جمعية علماء الهند السنوية نظرةً كلها تقدير وتثمين. ونشأ له نطاق نفوذ خاص لخطبه العلمية. وتعدت آثار خطبه إلى الأوساط العلمية خارج البلاد. والكلمة التي ألقاها عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م في مجلس السلطان ابن سعود حين رأس وفدًا محترمًا في رحلة الحجاز، كان لها فعل كبير في نفس السلطان. فمنحه السلطان ابن سعود الخلعة الملكية والكتب القيمة.

وتشكل رحلته إلى أفغانستان عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م صفحةً بارزةً في تاريخ الخدمات العلمية. وكان الشيخ قام بهذه الرحلة بغية إنشاء العلاقات

العلمية والمعرفية بين دارالعلوم والحكومة الأفغانية بصفته ناطقًا بلسان دارالعلوم، وقابلته الأوساط الأفغانية بحفاوةٍ لائقةٍ به. وشرفه الحكومة بالاستضافة، واستدعته اللجان الأفغانية العلمية والأدبية الحكومية وغير الحكومية إليها، وكانت لخطبه العلمية نفوذ وتأثير كبير في قلوب الأوساط العلمية والأدبية بها. كما سافر الشيخ أيضًا إلى عدد من الدول، أمثال: بورما، وجنوب إفريقية، وزنجبار، وكينيا، ورودیشیا، وري يونين، ومدغاسكر، والحبشة، ومصر، وإنكلترا، وفرنسا، وألمانيا وغيرها.

والحق أن لشخصيته الخلابة نواح لاتحصى ولاتعد: الشرف والمروءة، والتواضع الجم، والنزاهة الباطنية، والعلم والفضل والخطبة والوعظ، والتلقين والبساطة، وهضم الذات، والكلام الحكيم الفصيح البليغ. فكانت شخصيته الفخمة تجمع بصورة حسنة بين الأعمال والمواقف والجلال والجمال.

ومما كان يميل إليه الشيخ علاوةً على الشؤون الإدارية في دارالعلوم - التعليم والتدريس والدعوة والتبليغ. فكان له منزلة عالية بارزة في البلاد نظرًا إلى هذه الكمالات. وكانت هوايته مطالعة الكتب والتصنيف والتأليف. واستمرت هوايته هذه في غير أوقات الشؤون الإدارية لدار العلوم والتدريس الإفادة، وخاصةً كان ينفق أوقات الفراغ خلال الرحلات في ذلك. وكان الناس يتجمعون حوله بكثرة في الجزء الرجالي من بيته بين العصر والمغرب. وكان يجري في مجلسه هذا الحديث عن العلم والمعرفة في الغالب. وكان له مناسبة مع الشعر، وظهرت له عدد من القصائد. ونشر ديوان شعره باسم «عرفان عارف».

وكان يجمع بين القدرة على الخطابة والوعظ وبين القدرة على التأليف والتصنيف. وله كتب كثيرة بعضها ما يلي:

التشبه في الإسلام، مشاهير أمت، كلمات طيبات، وأطيب الثمر في مسألة القضاء و القدر، العلم الطبيعي والإسلام، تعليم إسلام ومسيحي أقوام، قضية اللغة الأردية في الهند، دين وسياست، أسباب عروج وزوال أقوام، إسلامي آزادي كا مكمل بروكرام، الاجتهاد والتقليد، أصول دعوت إسلام، إسلامي مساوات، تفسير سورة الفيل، فطري حكومت وغيرها.

* * *

* *

شبابُنا المثقف أمام الإيمَان والتدين

بقلم: الشيخ/ نديم الجسر

نحن أمام ظاهرة اجتماعية خطيرة يشكو منها العالم الإسلامي بأسره، هي أن أكثر شبابنا المثقف بالثقافة العلمية العالية هم أقرب إلى الإلحاد، وأن القلة المؤمنين منهم أميل إلى إهمال العبادات والشعائر. هذه الظاهرة بدأت مع عصر النهضة العلمية في بلاد العرب والإسلام، وأخذت تزداد خطرًا كلما ازدادت النهضة انتشارًا وازدهارًا، وقد منيت بالفشل كل المحاولات التي قام بها المصلحون في سبيل معالجتها.

ولكي نتوصل إلى دراسة صحيحة لأسباب هذه الظاهرة المزدوجة المتجلية بالإلحاد وإهمال الشعائر، علينا أن ندرس شخصية شبابنا، والمحيط الذي يعيشون فيه، والأفكار التي تغزو عقولهم، فشبابنا في عقله وجسده وميوله وأخلاقه يقف حائرًا مرتبكًا بين عدة تيارات: سلطان العقل، أوهام العقل، سلطان العلم، أوهام العلم، سلطان الجهل بحقيقة الإسلام. عدوى الملحدين، كيد المستعمرين، أخطاء المستشرقين والمؤرخين، العقد النفسية، فساد المحيط.

هذه أسباب ظاهرتنا الغريبة، نراها كثيرةً معقدةً ومتشابكةً منها الخارجي، ومنها الداخلي المحلي، ومنها العقلي، ومنها النفساني، ومنها الذي يستشري في قطر أكثر من قطر آخر، ومن كل هذا التعقيد والتشابك والتنوع والظهور والخفاء – كان الفشل في العلاج، فما لم نقنع شبابنا بأن الايمان بالله هو من أصدق وأوجب أحكام العقل، ومالم نقنعهم بأن قضايا الدين لا تتناقض مع العقل ولا مع العلم لن يكونوا مؤمنين، ومالم نيسر لهم التربية الصالحة، والمعرفة الميسرة والقدوة الكريمة لن يكونوا عاملين.

سلطان العقل في الإسلام

إن مزية الإسلام هو أنه قد جعل للعقل السلطان الأعلى في فهم النصوص المنزلة هذا العقل الذي أمرنا الله في آيات كثيرة من القرآن أمرًا قاطعًا أن نحتكم إليه عند جدلنا مع أنفسنا في معركة الشك – واليقين، وعند جدلنا مع غيرنا من الملحدين

والمشركين، يشمل بسلطانه كل معنى في الوجود، ابتداءً من أبسط الأمور – كإماطة الأذى عن الطريق إلى أعظم معنى في الوجود وهو الألوهية والوحدانية، وليس في الإسلام إيمان يتناقض مع العقل ولا نص يتناقض مع العقل، فكل نص يوجب ظاهره تناقضًا عقليًا في الذهن يتحتم علينا تأويله تأويلًا يرتفع به التناقض العقلي.

أوهام التعقل

لابد لي قبل أن أضرب ا لأمثلة على سلطان العقل في قضايا الإيمان والدين أن أكشف النقاب عن أوهام التعقل مبينًا الفرق:

١- بين المستحيل العقلي والمستحيل العادي.

٢- استحالة التعقل وصعوبة التصور.

٣- بين حكم عقلي عام تتفق عليه كل العقول السليمة، وبين نظرة فردية خالصة تختلف بشأنها العقول السليمة.

٤- بين الحقائق العلمية والمقطوع نهائيًا بصحتها، والآراء العلمية غير المقطوع نهائيًا بصحتها، والتي تبزغ وتظهر على مسرح التفكير حقبةً من الزمن ثم تخبو إلى الأبد.

إن الخلط بين هذه الحقائق والفوارق هو من أوهام التعقل التي يقع في أغاليطها كثير من الناس، حتى المثقفون بأعلى الثقافات، فمن الواجب على الشاب الذي يدخل في جدل مع نفسه، أو غيره، حول أية قضية دينية أن يقف تمام الوقوف على هذه الفوارق كي لا يقع في أوهام التعقل.

فالمستحيل العقلي هو الذي يوجب تصور وجوده أو تصور عدمه تناقضًا عقليًا في الذهن كقولنا: الواحد نصف الثلاثة أو الجزء أكبر من الكل. أما المستحيل العادي: فلا يوجب تصور حصوله أو عدم حصوله تناقضًا عقليًا في الذهن ولكن جرت العادة أن نعده مستحيلًا في العادة: كخرق النواميس الكونية بالمعجزات الإلهية. كذلك نقول عن الفرق بين استحالة تعقل الشيء وبين صعوبة تصوره: كم من حقيقة يمكن تعقلها ولكن يصعب على الذهن تصورها: كعدد ذبذبات الصوت التي أثبت العلم أنها قد تبلغ بالحساب الدقيق القاطع إلى نصف مليون ذبذبة في الثانية فيمكن تعقل هذه الحقيقة ولكن لا يمكن تصورها مطلقًا في الذهن؛ لأننا مهما جمعنا خيالنا وركزنا لا نستطيع أن نتصور أن ثانيةً من الزمن تتسع لنصف – مليون ذبذبة ولكن يجب ألا تحملنا صعوبة التصور على القول باستحالة التعقل. فما كل شيء يصعب تصوره يكون مستحيلًا عقلًا ولا كل معقول يسهل تصوره.

كذلك نقول عن الفرق بين النظر العقلي العام

الـذي تتفـق عـلى صـحته كـل العقـول الـسليمة بـلا خـلاف وبـين النظـرة – الخاصـة التـي تختلـف فيهـا العقول. فلا يقولن الشاب أثناء الجدل العقلي على قضية من قضايا الدين: هذا رأيي وهذا عقلي؛ لأننا نقـول لـه: عقلـك وحـدك لـيس حجـةً عـلى الحكـم الصحيح، ولكن اتفاق كل العقول هو الحجة.

كـذلك نقـول عـن الفـرق بين الحقـائق العلمية المقطــوع عقليًــا ونهائيًــا بــصحتها، وبــين الآراء والنظريات العلمية الظنية المرجحة التي لم يقم دليل قـاطع عـلى صـحتها ويحتمـل أن تظهـر أدلـة جديـدة تنفـي صـحتها وتوجـب بطلانهـا، والأمثلـة كثـيرة – كروية الأرض، حركة الشمس، الجاذبية الكهربائية، أوهـام التـاريخ التـي تلـبس ثـوب الحقيقـة القاطعـة، فعلى الشباب ألا يبنوا آراءهـم النهائيـة وجد لهـم في إنكـار القـضايا والأخبـار الدينيـة عـلى أسـاس آراء علمية خاطئة أو ناقصة، يظونونها حقائق علمية ثم يظهر لهم بعد ذلك أن هذا الأساس الذي بنوا عليه جـدلهم وجحـودهم وإلحـادهم، هـو أسـاس باطـل، تعبوا في البناء عليه، ثم لما ظهر الحق خر البناء من القواعد.

أمثلة على سلطان العقل في الإسلام

١- قضية وجود الله الخالق لهذا الكون: هي حقيقـة ذكرتهـا الكتـب المنزلـة، وعنـد عرضـها عـلى العاقل، نجد أن إقرارها لا يشكل تناقضًا عقليًا؛ بل إنكارها هـو الـذي يشكل تناقضًا عقليًا؛ لأنـه يجعل العالم الممكن الحادث المعلول موجودًا – بغير علة ولا فاعـل، وهـذا مـستحيل يـشكل تناقـضًا عقليًـا فاضـحًا، أو يجعـل المعلـول عـين العلـة، هـذا أيـضًا مستحيل يشكل تناقضًا عقليًا فاضحًا، وعن هذين المستحيلين عبر القرآن بقوله: أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ؟.

٢- والوحدانيـة حقيقـة ذكرتهـا كـل الكتـب السماوية: وعند عرضها على العقل نجد أن إقرارها لا يوجب تناقضًا عقليًا؛ بل القول بتعدد الآلهة هو الذي يشكل تناقضًا عقليًا.

٣- قـضية المعجـزات التـي ذكرتهـا الكتـب السماوية: وعند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصولها يوجب تناقضًا عقليًا؛ بل ادعاء استحالتها استحالةً عقليةً لا عاديةً، هـو الـذي يوجب تناقضًا عقليًا عند من يؤمن بأن الله هو خالق الكون وخالق النـواميس؛ لأن المعجـزات هـي خـرق النـواميس الكونية، وهذا الخرق مستحيل في العادة ولكنه غير مستحيل عقلًا؛ لأن الذي خلق النواميس قادر على خرقهـا، ونحـن نـستنكر تفـسير المعجـزات الإلهيـة تفسيرًا علميًا؛ لأن هذا التفسير يفقد المعجزة معناها ويرد الشباب المثقف الذي نريد حمله على تصديق

المعجـزة إلى نكـسة عقليـة في معجـزات يـستحيل تفسيرها على أساس علمي.

٤- قضية البعث التي ذكرها وأكدها القرآن: عند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصول البعث يوجب تناقضًا عقليًا؛ بل القول باستحالة حصول البعث هو الذي يوجب تناقضًا عقليًا؛ لأن البعث هو خلق جديد، والذي خلق الإنسان أول مرة قادر على إعادة خلقه؛ بل هو أهون عليه.

تيسير الفهم والتفهيم

إن تيسير فهم النصوص، وفهم حكمة أحكام الدين، له أثر كبير في جذب الشباب المثقف نحو القيام بالعبادات والشعائر، وشبابنا مسدودة في وجوههم أسباب هذا التيسير للفهم من كل النواحي: في البيت، في المدرسة، بالكتب الضخمة التي يجفل الشباب من مجرد رؤيتها؛ بل يعسر فهمها حتى على بعض علماء الدين، ومسدودة بجمود كثير من المسلمين المرشدين الذي يقابلون كل سؤال بغضبة، وكل استفهام بلعنة، وكل بحث عن المعقول بالتفكير، وأضرب على عدم تيسير الفهم مثلًا بسيطًا: فهذا القرآن الذي يخاطب العرب بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فيه أكثر من ألف كلمة عربية لايعرف شبابنا المثقف معناها اللغوي، وهو يسمعها في كل يوم وليلة من الإذاعات فكيف الحال مع غير العرب؟

يجب أن نضع بين أيدي الشباب كتبًا دينيةً واضحةً سهلةً جذابةً وأن نقيم على تعليمهم في المعاهد أساتذةً يحسنون الفهم والتفهيم، ويدركون أساليب التربية الفنية، ولهم صدور واسعة، وعقول نيرة، وثقافات تتناسب مع ثقافة الشباب المعاصر.

المثقفون والخرافات

ومن أعظم ما ينفر الشباب المثقف من الدين تلك البدع والشوائب والخرافات التي ألصقت بالإسلام وهو براء منها، وليس أدل على بعد الإسلام وترفعه عنها من هدى القرآن والسنة الصحيحة، وهما المنبعان الأصيلان للتشريع فإذا تصفح الشباب القرآن وجدوا أنه في كل سورة؛ بل في كل صفحة يعلي كلمة الحق، ويجعل العقل إليه هاديًا والعمل عليه دليلًا، والعلماء عليه شهداء، ويحذر من الظن الذي لا يغني عن الحق شيئًا ويستهزئ بالخرافات والأساطير، ويفصل فصلًا صارمًا بين الألوهية والبشرية، ويخوف أشد التخوف من الشرك الخفي، ويجعل صلة العبد بالله من غير وسيط.

وإذا تصفح الشباب السنة الصحيحة وهي هدي الرسول قولًا وعملًا، وجدوا أنه عليه السلام

كـان أبعـد النـاس عـن أوهـام الخرافـات، وأشـدهم إنكارًا للتنجيم والعرافة والشعوذة والاستجارة بغير الله، كـان أعظـم النـاس تبرأ مـن كـل مـا يرفعـه عـن مـستوى البـشرية والعبوديـة لله، كـان عليـه الـسلام أكثر الناس ذكرًا لله ولكنه لم يخرج عن سمت الوقار والإخبات إلى هرج الطقوس والحركات والرقص، وكـان أعظـم النـاس زهـدًا وتقـشفًا، لكنـه لم يخـرج في زهده وتقشفه وتصوفه – إذا جاز هذا التعبير–، عن بـساطة الإخـلاص إلى تعقيـد الريـاء الـذي سرت طقوسه إلى المسلمين من الأمم التي اختلطوا بها بعد الفتح.

عقدتا الكبت والتقنيط

مـن أسـباب انـصراف الـشباب عـن ممارسـة الشعائر عقدتا الكبت والتقنيط، فالطريقة التي بها ساق الأب ابنه في صغره أو المعلم في المدرسة، إلى إقامة الشعائر، سببت له كبتًا نفسيًا جعله ينفر من الـشعائر، هـذا الكبـت النفـسي، يجـب أن يحـل محلـه التـشويق والترغيـب والإيحـاء والاسـتهواء بالنـسبة للصغار، أما الشباب البالغون، فمن أهم أساليب الإيحاء لهم أن تعتمل الجماعات الرياضية والكشفية وأمثالها على إدخال إقامة الصلاة وصيام رمضان في نظامها. وأخيرًا يجدر بنا ونحن ندرس عقدة الكبت أن نيسر لهم أمر التطهر بالماء وبغير الماء عند المانع كي يستسهلوا الصلاة، ويتعودوا عليها[1]، وأن نيسر لهـم أيـضًا الجمـع بـين الـصلاتين عنـد العـذر أخـذًا لمـذهب الحنابلـة، وفي هـذا العـصر عـصر الكـدح السريع المرير.

والشبان بحكم مرح الشباب وفورته وجموحه ولهـوه، لابـد أن تكـون لهـم مزالـق في حيـاتهم، فـإذا سـمعوا مـن الوعـاظ أهـوال المنـذرات تكونـت في صدورهم عقدة القنوط، ولو أن الوعاظ اتبعوا نهج القرآن في الترغيب والترهيب لفتحوا لذلك الشباب في جدار يأسه كوةً ينفذ منها إلى الأمل، ويخرج منها إلى التوبة.

إن الخطر الكامن خلف عقدة القنوط، هو أن تتكـون عنـد الـشباب المسترسل في الإلحاد والفساد لـذة التنفـيس عـن نفـسه بطرائـق ثـلاث: الجـدل في الإلحـاد، الاسـتهزاء بالـشعائر، ثـم جـر الرفـاق إلى الانـزلاق. ولقـد سرت إلى شـبابنا المثقـف عـدوى التقليد بعد أن قرأ تاريخ النزاع الطويل بين المفكرين ورجـال الـدين في أوروبـا، الـذي انتهـى عنـد بعـض المفكرين إلى الشك، وانتهى عند الماركسية المادية إلى الكفـــر والإلحـــاد، واحتقـــار الـــشعائر الدينيـــة ومحاربـة الـدين ورجالـه. إن شـبابنا الـذي فتحـت في

[1] في حدود ما بينه فقهاء المسلمين الذين يعتد برأيهم.

تفكيره هوة من الفراغ بسبب ما يحمل في رأسه من غـرور العقـل وأوهـام التعقـل والجهـل لحقيقـة الإسـلام، ومـا يحمـل في صـدره مـن عقـد الكبـت والقنوط أصبح بحاجة طبيعية لملء هذا الفراغ بأية فكرة تلائم نفسيته، فانجرف مع تقليد الغربيين في شكوكهم ثـم زادتـه المشاكل الاقتصادية المعاصرة فراغًـا فـانجرف مـع تقليـد الماركـسية بـشيوعيتها وإلحادها.

عقدة التخاذل والاستخذاء

وهي تظهر عند بعض الشبان الذين لم تتحمل رؤوسهم زهـد الثقافة، فتخلوا باسم التقدمية عـن شـعائر ديـنهم وعـزتهم الإسـلامية في آن واحـد، وهـؤلاء المخـاذلون ليـسوا كلهـم ملحـدين؛ بـل قـد يكونـون في قـرارة أنفـسهم مـن المـؤمنين، ولكـن إذا ضمتهم المجالس والنوادي مع الإفرنج والمتفرنجين أظهروا من باب التفاخر بالتقدمية العصرية أنهم لا يبـالون بـشعائر الـدين ولـو كـان أحـدهم منتسبًا إلى فرقـة رياضـية صـغيرة، أو حـزب سـياسي هزيـل أو حـزب عقائـدي ملحـد، لرأيتـه يحمـل شـارتها ويرفـع شـعارها، ويفخـر بهـا ويـدافع عنهـا، ولكنـه وهـو المنسوب إلى أمة عظيمة لها في تاريخها ما يرفعها في كل مستويات المثل العليا فوق الأمم يتعير منها ومن شـعائرها وتقاليـدها، هـذا الاسـتخذاء سـببه جهـل شبابنا للتاريخ ولـو زعمـوا أنهـم قرؤوه واجتازوا به الامتحانات بجدارة.

وربـما كـان مـن أعظـم أسـباب ضـعف الإيـمان عنـد الـشباب سـوء القـدوة في البيـت والمدرسـة والمسجد، ذلك لأن القدوة إنما تبنى على الاحترام والثقة وما لم يكن للسباب في قرارة نفوسهم احترام لرجـل الـدين وثقـة بعلمـه وخلقـه قـولًا وعمـلًا، لا يمكـن أن يتخذوا منه قدوةً؛ بل يكون غير الصالح من رجال الدين سببًا لتجرئ الشباب على الإلحاد، وعـلاج هـذا الأمـر يحتاج إلى إعـداد جيـل كامـل مـن رجال الدين يتولى هو بدوره تخريج جيل من الآباء والأمهات والمعلمين الصالحين للقدوة – لتستكمل الحلقة دروتها.

سلطان الرأي العام

إن أولئـك المـصابين مـن شـبابنا بتلـك العقـد، والـذين بلـغ الأمـر بهـم إلى حـد إعـلان الإلحـاد والاستهزاء بالدين، وإغواء الاخرين وتخذيل الأمة، هـم مـرضى، يجـب أن نعـالجهم كـما نعـالج كـل الأمـراض النفـسية، والعقليـة، أي: تـارةً بالإيحـاء والاسـتهواء والإرشـاد، وتـارةً بـشيء مـن القـسوة، وعـلاج القسوة من عمل الرأي العام، هـذا الـرأي العام الذي وضع به التشريع الإسلامي أعظم ركائز الإصلاح والزجر في المجتمع، فلو أن الرأي العام

درج على إظهار الاستنكار والاحتقار للجاهرين بالإلحاد لأحدث ذلك أثرًا عظيمًا في الإصلاح.

وأخيرًا... الإيمان بالله ضرورة

إن آخر طرق العلاج مع الشباب المثقف؛ بل أولها عند البعض، أن نقنعهم بجدوى الإيمان وأنه ضرورة إنسانية في فلسفة البراغماتيزم أي: فلسفة الذرائع. أن الفكرة إنما تكون حقًا؛ لأنها نافعة. وإنما تكون نافعة؛ لأنها حق، وإن الحق والنافع يعبران عن شيء واحد. هذه الفلسفة التي تتخذ من القيمة العملية للفكرة مقياسًا للحقيقة ليست صحيحةً في أساسها وليس هذا مقام الكشف عن جوانب الخطأ فيها، ولكننا نتخذ منها منطلقًا لطرح السؤال الآتي:

هل نبدأ التفكير في الحق أولًا لنستخرج منه النافع أم نبدأ التفكير في النافع الضروري لنقول عنه: إنه حق؟

أرى أن نبدأ بالثاني ولكن من أي جوانب النفع والضرورة نمسك خيوط الجدل مع هذا الشباب الذين تحيط بهم الشكوك في الدين من كل جانب؟

لا ريب أن البداية يجب أن تكون أمرًا نتفق نحن والشباب على أنه «حق وضرورة» فما هو هذا الأمر؟ أنه «إنسانيتنا» التي يمكن أن يجادل الشباب في كل شيء إلا فيها.

يقول الفيلسوف الإسلامي الكبير، ابن مسكويه: إن المزية الوحيدة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوانات كلها هي «مكارم الأخلاق»، كأن يقال: إن الإنسان يمتاز عن الحيوانات بمزية واحدة هي «النطق أي العقل». ولكن التحقيق العلمي أثبت أن الحيوانات لا تخلو من عقل تدرك به كثيرًا من أمور معيشتها لذلك صار علينا أن نبحث عن مزية أخرى خاصةً، يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، وبها يسمى إنسانًا، وهذه المزية الخاصة هي الأخلاقية التي تتجلى بالضمير الإنساني. وجاء «دارون» بعد ابن مسكويه بعصور يقول: إن الضمير أو الحي الأخلاقي هو أظهر فاصل يفرق بين الإنسان والحيوان، وجاء «كانط» يتخذ من هذا الشعور الأخلاقي منطلقًا لإثبات خلود الأرواح ويوم الحساب ووجود الله الحكم العدل... هذا الضمير الأخلاقي إنما يصونه الصيانة الكاملة شيء واحد: وهو الإيمان بوجود الله الحكم العدل القدير.

فتحقيق إنسانيتنا ضرورة اجتماعية، وإنسانيتنا لا تتحقق إلا بأخلاقيتنا، وأخلاقيتنا لا تصان إلا بالإيمان، فالإيمان إذن، أمر ضروري؛ لأنه يمسك أخلاقيتنا التي تثبت بها إنسانيتنا.

* * *

صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

بقلم: أبو عائض المباركفوري

تتضمن آيات القرآن الكريم كثيرًا من صور الإعجاز البياني، ندرس بعضًا منها في هذا المقال:

١- قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١].

تكررت الآية مع أن الأولى تفيد مضمون الثانية، فما فائدة ذلك؟

ذكر المفسرون فيه وجوهًا:

أحدهما: قال الرازي: إنه عنى بالآية الأولى إبراهيم ومن ذكر معه، و بالثانية أسلاف اليهود. قال الجبائي: قال القاضي: هذا بعيد؛ لأن أسلاف اليهود والنصارى لم يجر لهم ذكر مصرح. و موضع الشبهة في هذا القول أن القوم لما قالوا في إبراهيم وبنيه: إنهم كانوا هودًا فكأنهم قالوا: إنهم كانوا على مثل طريقة أسلافنا من اليهود فصار سلفهم في حكم المذكورين فجاز أن يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ و يعنيهم؛ ولكن ذلك كالتعسف؛ بل المذكور السابق هو إبراهيم وبنوه. فقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّة﴾ يجب أن يكون عائدًا إليهم.

وذكر هذا القول أبوحيان وأبوالسعود وكذلك الآلوسي، وانتهى إلى القول بأنه لا يخفي ما فيه من التعسف الظاهر(١).

الوجه الثاني: أنه متى اختلفت الأوقات والأحوال والمواطن لم يكن التكرار عبثًا فكأنه تعالى قال: ﴿مَا هَـذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾ فوصف هؤلاء الأنبياء فيما أنتم عليه من الدين لا يسوغ التقليد في هذا الجنس فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة فلها ما كسبت، وانظروا فيما دعاكم إليه محمد ﷺ؛ فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم ولا تسألون إلا عن عملكم. ذكره الرازي(٢).

الوجه الثالث: أنه تكرير لما تقدم للمبالغة في التحذير عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليه كما يقال: اتق الله، اتق الله أو تاكيد وتقرير للوعيد يعنى أن الله تعالى يجازيكم على أعمالكم ولا ينفعكم آباؤكم ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم؛ بل عن أعمالكم. ذكره أبو السعود والآلوسي(٣).

الوجه الرابع: الخطاب فيما سبق لأهل الكتاب وفي هذه الآية لنا تحذيرًا عن الاقتداء بهم. ذكره أبوالسعود و الآلوسي(٤).

الوجه الخامس: ما ذكره ابن عاشور فقال: لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السامعين اهتمامًا بما تضمنه لكونه معنى لم يسبق سماعه للمخاطبين فلم يقتنع فيه بمرةٍ واحدةٍ. ومثل هذا التكرار واقع في كلام العرب، قال لبيد:

فتنازعا سبطا يطير ظلاله

كدخان مشعلةٍ يشب ضرامها

مشمولة غلثت بنابت عرفج

كدخان نار ساطع أسنامها

فإنه لما شبه الغبار المطاير بالنار المشبوبة واستطرد بوصف النار بأنها هبت عليها ريح الشمال وزادتها دخانًا وأوقدت بالعرفج الرطيب لكثرة دخانه أعاد التشبيه ثانيًا؛ لأنه غريب مبتكر(٥).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (الآية:١٤٥).

من المعلوم ضرورةً أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتبع قبلتهم وقد دل عليه قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ فما الفائدة في هذا الشطر من الآية؟

وأجيب من وجوه:

الأول: قال الزمخشري: قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير بمعنى: ولئن اتبعت أهواءهم – مثلًا- بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر إنك إذا لمن المرتكبين الظلم الفاحش، وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع بحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهييج وإلهاب للثبات على الحق. و ذكره ابن عاشور والألوسي(٦).

وعن هذا المعنى عبرأبوحيان بقوله: وتعليق وقوع الشيء على شرط لا يقتضي إمكان ذلك الشرط. يقول الرجل لامرأته: إن صعدت إلى السماء فأنت طالق، ومعلوم امتناع صعودها إلى السماء. وقال تعالى في الملائكة الذين أخبرعنهم: أنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم:٦] قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٢٩] وإذا اتضح ذلك سهل ما ورد من هذا النوع، وفهم من ذلك الاستحالة؛ لأن المعلق على المستحيل مستحيل. ويصيرمعنى هذه الجملة التي ظاهرها الوقوع على تقديرامتناع الوقوع، ويصير المعنى: لا تعد ظالمًا، ولا تكونه؛ لأنك لا تتبع أهواءهم، وكذلك لا يحبط عملك؛ لأن إشراكك ممتنع، وكذلك لا يجزى أحد من الملائكة جهنم؛ لأنه لا يدعي أنه إله. وقالوا: ما خوطب به من هو معصوم مما لا يمكن وقوعه منه، فهو محمول على إرادة أمته، ومن يمكن وقوع ذلك منه، وإنما جاء الخطاب له على سبيل التعظيم لذلك الأمر، والتفخيم لشأنه، حتى يحصل التباعد منه. ونظير ذلك قولهم: إياك أعني واسمعي

يا جارة[٧].

الثاني: أن الخطاب لغير الرسول ﷺ؛ لأنه تعالى عرف أن الرسول لا يفعل ذلك فلا يجوز أن يخصه بهذا الخطاب. ذكر هذا القول الرازي وخطأه فقال: وهذا القول خطأ؛ لأن كل ما لو وقع من الرسول لقبح، والإلجاء عنه مرتفع، فهو منهي عنه، وإن كان المعلوم منه أنه لا يفعله، ويدل عليه وجوه: أحدها: أنه لو كان كل ما علم الله أنه لا يفعله وجب أن لا ينهاه عنه، لكان ما علم أنه يفعله وجب أن لا يأمره به، وذلك يقتضي أن لا يكون النبي مأمورًا بشيء ولا منهيًا عن شيء وأنه بالاتفاق باطل.

وثانيها: لولا تقدم النهي والتحذير لما احترز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه فلما كان ذلك الاحتراز مشروطًا بذلك النهي والتحذير فكيف يجعل ذلك الاحتراز منافيًا للنهي والتحذير.

وثالثها: أن يكون الغرض من النهي والوعيد أن يتأكد قبح ذلك في العقل، فيكون الغرض منه التأكيد ولما حسن من الله التنبيه على أنواع الدلائل الدالة على التوحيد بعد ما قررها في العقول والغرض منه تأكيد العقل بالنقل فأي بعد في مثل هذا الغرض ههنا.

ورابعًا: قوله تعالى في حق الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء:٢٩) مع أنه تعالى أخبر عن عصمتهم في قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل:٥٠) وقال في حق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر:٦٥) وقد أجمعوا على أنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك وما مال إليه، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ (الأحزاب:١) وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم:٩) وقال: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة:٦٧) وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:١٤) فثبت بما ذكرنا أنه عليه الصلاة والسلام منهي عن ذلك، وأن غيره أيضًا منهي عنه؛ لأن النهي عن هذه الأشياء ليس من خواص الرسول -عليه الصلاة والسلام- بقي أن يقال: فلم خصه بالنهي دون غيره؟ فنقول: فيه وجوه. أحدها: أن كل من كان نعم الله عليه أكثر، كان صدور الذنب منه أقبح، ولا شك أن نعم الله تعالى على الرسول عليه الصلاة والسلام أكثر فكان حصول الذنب منه أقبح فكان أولى بالتخصيص. وثانيها: أن مزيد الحب يقتضي التخصيص بمزيد التحذير. وثالثها: أن الرجل الحازم إذا أقبل على أكبر أولاده وأصلحهم فزجره عن أمر بحضرة جماعة أولاده؛ فإنه يكون منبهًا بذلك على عظم ذلك الفعل إن اختاروه وارتكبوه وفي عادة الناس أن يوجهوا أمرهم ونهيهم إلى من هو أعظم درجة

تنبيهًا للغيرأوتوكيدًا، فهذه قاعدة مقررة في أمثال هذه الآية(٨).

القول الثالث: أن قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ليس المراد منه أن اتبع أهواءهم في كل الأمور فلعله عليه الصلاة والسلام كان في بعض الأمور يتبع أهواءهم، مثل ترك المخاشنة في القول والغلظة في الكلام، طمعًا منه عليه الصلاة والسلام في استمالتهم، فنهاه الله تعالى عن ذلك القدر أيضًاوآيسه منهم بالكلية على ما قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٧٤). ذكره الرازي(٩).

القول الرابع: أن ظاهر الخطاب وإن كان مع الرسول إلا أن المراد منه غيره، وهذا كما أنك إذا عاتبت إنسانًا أساء عبده إلى عبدك فتقول له: لو فعلت مرةً أخرى مثل هذا الفعل لعاقبتك عليه عقابًا شديدًا، فكان الغرض منه لا يميل إلى مخاطبتهم ومتابعتهم أحد من الأمة. ذكره الرازي(١٠).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٩].

فإن قلت: إن الأمر بالتولي إلى المسجد الحرام ورد ثلاث مرات، فقد قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (البقرة:١٤٤) وذكر هنا ثانيا قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ثم ذكر ثالثا قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [الآية:١٥٠]، فهل في هذاالتكرار فائدة أم لا؟

ويقول الرازي: للعلماء فيها أقوال:

أحدها: أن الأحوال ثلاثة: أولها: أن يكون الإنسان في المسجد الحرام، وثانيهما: أن يخرج عن المسجد الحرام ويكون بالبلد. وثالثها: أن يخرج من البلد إلى أقطار الأرض.

فالآية الأولى محمولة على الحالة الأولى، والثانية على الثانية والثالثة على الثالثة؛ لأنه قد كان يتوهم أن للقرب حرمةً لا تثبت فيها للأبعد فلأجل إزالة هذا الوهم كررالله تعالى هذه الآيات. وذكره أبوحيان(١١).

الجواب الثاني: أنه سبحانه إنماأعادذلك ثلاث مرات؛ لأنه علق بها كل مرة فائدةً زائدةً، أما في المرة الأولى فبين أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر نبوة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأمر هذه القبلة حق؛ لأنهم شاهدوا ذلك في التوراة والإنجيل، وأما في المرة الثانية فبين أنه تعالى يشهد أن ذلك حق،

وشهادة الله بكونه حقًا مغايرة لعلم أهل الكتاب بكونه حقًا. وأما المرة الثالثة فبين أنه إنما فعل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة. فلما اختلفت هذه الفوائد حسنت إعادتها لأجل أن يترتب في كل واحدة من المرات واحدة من هذا الفوائد. ونظيره قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة البقرة:٧٩]. وذكره الزمخشري وأبوحيان وأبو السعود وابن عاشور(١٢).

الجواب الثالث: أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فكان ربما يخطر ببال جاهل أنه تعالى إنما فعل ذلك طلبًا لرضا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه قال: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ فأزال الله هذا الوهم الفاسدبقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ﴾ أي: نحن ما حولناك إلى هذه القبلة بمجرد رضاك؛ بل لأجل أن هذا التحويل هو الحق الذي لا محيد عنه فاستقبالها ليس لأجل الهوى والميل كقبلة اليهود المنسوخة التي إنما يقيمون عليها بمجرد الهوى والميل ثم إنه تعالى قال ثالثًا: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ والمراد: دوموا على هذه القبلة في جميع الأزمنة والأوقات ولا تولوا فيصير ذلك التولي سببًا للطعن في دينكم. وذكره أبوحيان وأبوالسعود(١٣).

والحاصل أن الآية السالفة أمر بالدوام في جميع الأزمنة، والآية الثانية أمربالدوام في جميع الأزمنة والأمكنة. والآية الثالثة أمر بالدوام في جميع الأزمنة وإشعاربأن هذا لا يصير منسوخًا البتة.

الجواب الرابع: أن الأمرالأول مقرون بإكرامه إياهم بالقبلة التي كانوا يحبونهاوهي قبلة أبيهم إبراهيم. والثاني مقرون بقوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ﴾ أي: لكل صاحب دعوة وملة قبلة يتوجه إليها فأنتم إلى أشرف الجهات التي يعلم الله تعالى أنه حق. وذلك هوقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ﴾.

والثالث مقرون بقطع الله حجة من خاصمه من اليهود في أمرالقبلة فكانت هذه عللًا ثلاثًا قرن بكل واحدة منها أمر بالتزام القبلة. نظيره أن يقال: الزم هذه القبلة؛ فإنها القبلة التي كنت تهواها ثم يقال: الزم هذه القبلة؛ فإنها قبلة الحق لا قبلة الهوى، وهوقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ﴾ ثم يقال: الزم هذه القبلة؛ فإن في لزومك إياها انقطاع حجج اليهود عنك.

وهذا التكرار في هذا الموضع كالتكرار في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن:١٣] وكذلك ما كرر في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

﴿لَآيَـــةًۖ وَمَـــا كَانَ أَكۡـــثَرُهُم مُّـــؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء:١٥٨] وذكره أبوحيان(١٤).

الجواب الخامس: أن هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهرالنسخ فيها في شرعنا فدعت الحاجة إلى التكرارلأجل التاكيد والتقريروإزالة الشبهة وإيضاح البينات. وذكره الزمخشري وأبوحيان(١٥).

الجواب السادس: أن هذه الجملة كررت توكيدًا لما قبلها في الآية التي تليها فقط، لا أن ذلك توكيد للآية الأولى؛ لأنا قد بينا أن الأولى في الإقامة، والثانية في السفر، وأما الثالثة فهي في السفر، فهي تأكيد للثانية. وحكمة هذا التأكيد تثبيت هذا الحكم، وتقرير نسخ استقبال بيت المقدس؛ لأن النسخ هو من مظان الفتنة والشبهة وتزيين الشيطان للطعن في تبديل قبلة بقبلة؛ إذ كان ذلك صعبًا عليهم، فأكد بذلك أمر النسخ وثبت. وكان التأكيد على ما قررناه بتكرير هذه الجمل مرتين؛ لأن ذلك هو الأكثر المعهود في لسان العرب، وهو أن تعاد الجملة مرةً واحدةً. قاله أبوحيان(١٦).

الجواب السابع: قال المهدوي: كررت هذه الأوامر؛ لأنه لا يحفظ القرآن كل أحد، فكان يوجد عند بعض الناس ما ليس عند بعض لو لم يكرر. وهذا المعنى في التكرير يروى عن جعفر الصادق، ولهذا المعنى رفع التكرير في القصص. ذكره أبوحيان(١٧).

الجواب الثامن: الأولى من قوله: ﴿فَـــوَلِّ وَجۡهَـــكَ﴾، نسخ للقبلة الأولى، والثانية لاستواء الحكم في جميع الأمكنة، والثالثة للدّوام في جميع الأزمان. ذكره أبوحيان(١٨).

الجواب التاسع: وقيل: الأول لجميع الأحوال، والثاني لجميع الأمكنة، والثالث لجميع الأزمنة. ذكره أبوحيان(١٩).

* * *

الهوامش:

(١) الرازي ٤/١٠٠؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ الآلوسي١/٤٠١.

(٢) الرازي ٤/١٠٠.

(٣) الآلوسي ١/٤٠١؛ أبوالسعود١/١٧٦.

(٤) نفس المصدر؛ أبوالسعود١/١٧٦.

(٥) ابن عاشور ١/٧٤٨.

(٦) الكشاف ١/١٠١؛ ابن عاشور ٢/٣٧؛ الآلوسي٢/١٢.

(٧) أبوحيان تفسير الآية. وأوله: أصبح يهوى حرة معطاره راجع: الذخيرة ٥/٧٤.

(٨) الرازي ٤/١٠٩.

(٩) الرازي ٤/١٠٩.

(١٠) الرازي ٤/١٠٩.

(١١) أبو حيان تفسير الآية؛ ابن عاشور في تفسير الآية.

(١٢) ابن عاشور في تفسير الآية؛ الكشاف تفسير الآية؛ أبو حيان تفسير الآية؛ أبوالسعود ١/١٨٠.

(١٣) أبوحيان تفسير الآية؛ أبوالسعود ١/١٨٠.

(١٤) أبوحيان تفسير الآية.

(١٥) الكشاف تفسير الآية؛ التفسير الكبير ٤/١٥١-١٥٣؛ أبو حيان في تفسير الآية.

(١٦) أبوحيان تفسير الآية.

(١٧) أبوحيان تفسير الآية.

(١٨) أبوحيان تفسير الآية.

(١٩) أبوحيان تفسير الآية.

أهم الأسس التي يقوم عليها الإيمان باللّه

بقلم: الأستاذ/ عبد اللّه بن عبد الرحمن الجربوع

لابد من التأكيد على أن الإيمان هو الإيمان المؤثر الذي يقرب من الله ويجلب ولايته ويتحصن به المؤمن من كيد شياطين الإنس والجن وأفكارهم العفنة وأفعالهم القبيحة.

وهذا الإيمان يقوم على عدة أسس أهمها:

١- الكفر بالطاغوت.

٢- الإيمان بالغيب.

٣- القيام بمقتضى التكليف بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

٤- الإخلاص لله في العبادة.

٥- صدق المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٦- العلم.

وسوف أتكلم على كل منهما بما أرى أنه يفي بالغرض، والله المستعان.

الأساس الأول: الكفر بالطاغوت

الطاغوت في اللغة: مشتق من طغا يطغو: إذا عدا وتجاوز قدره[1].

ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (الحاقة:١١) وقد قدم الله تعالى الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله في بعض النصوص لكونه شرطًا لصحته. كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (الزمر:١٧). وفي ذلك إشارة إلى أن التطهير مقدم على التزكية وأن تخليص القلب من أدارنه ونجاساته المتمثلة بالمعتقدات الباطلة ومايترتب عليها من محبة الطواغيت أو التعلق بهم واجب لحلول الإيمان بالقلب.

وفي بعض النصوص نجد تقديم الإيمان والأمر بالعبادة على الكفر بالطاغوت كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ (النحل:٣٦).

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله» وفي رواية: «من وحد الله» ثم

ذكر بمثله[٢].

وتقديم الأمر بالتوحيد على الكفر بالطاغوت يتضمن الإشارة إلى أمرين هامين:

الأول: أن عبـادة الله وحـده لاشريـك هـي الأساس الأهم للإيمان وهي حق الله على عباده. والكفر بالطاغوت شرط لها. فدعوة الرسل تنصب على المقصد الأهم وهو العبادة الخالصة ثم بيان شرطها. فتقديم الغاية على شرطها هو الأنسب في مقام التبليغ والبيان.

أما في فعل العبد وامتثاله لما كلف به فلابد أولًا أن يخلع ثوب الشرك ويكفر بالطاغوت ثم يدخل الإيمان نقيًا طاهرًا فيتزكى. كما قال تعالى في فعل العبد: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾.

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الزمر:١٧).

الثاني: أن تأخير ﴿وَٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ في الآية، و«كفر بما يعبد من دون الله» في الحديث يفيد وجوب الاستمرار. فكما أن الكفر بالطاغوت مقدم في المجال العملي، إلا أنه يجب أن يستمر إلى أن يلقى العبد ربه. فعلى المؤمن طول حياته أن يستقيم على عبادة الله الخالصة، ويجتنب الطاغوت وذلك كالصلاة والطهارة لها. فالطهارة تكون قبل الصلاة وتستمر حتى نهايتها. والله أعلم.

والكفر بالطاغوت أصل تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله.

قال سليمان[٣] بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب –رحمهم الله– مبينًا حقيقة التوحيد: «وحاصله هو البراءة من عبادة كل ماسوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله. وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله وهو معنى: لا إله إلا الله»[٤].

المراد بالطاغوت في خطاب الشارع:

فُسر الطاغوت بالشيطان، والساحر، والكاهن، والأصنام[٥].

وهذا تفسير له ببعض أفراده. وإلا فالطاغوت يطلق على كل من طغى وتجاوز حده وادَّعى حقًا من حقوق الله التي تفرد بها.

قال ابن جرير(٦) – رحمه الله–: «والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنسانًا كان ذلك المعبود أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صنمًا كائنًا ما كان من شيء»[٧].

فالضابط إذا لمعنى الطاغوت:

أنه كل مخلوق تجاوز حده وادَّعى شيئًا مما تفرد الله به[٨] أو نُسب إليه ورضي بذلك، أو كان في حكم الراضي.

ويخرج من هذا الأنبياء والملائكة وصالحو الإنس والجن الذين عُبدوا في حياتهم أو بعد موتهم أو أسند إليهم دون رضاهم شيء مما اختص الله به. وذلك أنهم لم يدَّعوا ذلك ولن يقروا من ادعاه. وسيتبرؤون منه إن علموا به في حياتهم أو يوم القيامة كما قال تعالى مبينًا ذلك:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ:٤٠-٤١).

فهم لا يعبدونهم في حقيقة الأمر. إنما يعبدون الشياطين الذين زيَّنوا لهم ذلك. والذين يتلاعبون بهم بما يظهرون لهم من خوارق العادات ونحوها. ويدخل في مسمى الطاغوت الجمادات التي عبدت من دون الله، كالقبور والأحجار والأشجار والعتبات والمشاهدات، ونحوها.

وذلك أنه نسب إليها وفعل عندها ما لا يجوز إلا لله وحده فهي في حكم الطواغيت. وسوف تلقى في النار مع من عبدها زيادة في تبكيت المشركين كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨).

وقد استثنى الله عباده الصالحين الذين عبدوا من دونه من الدخول في جهنم وذلك أنه نُسِب إليهم ذلك زورًا وبهتانًا. فلم يدْعوا لذلك ولن يرضوا به، وسيتبرؤون منهم يوم القيامة فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١-١٠٢)

والإيمان بالطاغوت: يكون بتصديقه فيما ادعاه من حق الله، أو تصديق ما نسب إليه من ذلك حتى لو لم يعمل به.

وعبادة الطاغوت: تكون بالعمل بموجب ذلك التصديق، بصرف شيء من العبادة له كالصلاة أو الدعاء أو الرجاء.. ونحو ذلك.

والكفر بالطاغوت: يكون باعتقاد بطلان عبادة غير الله، وتكذيب ما يَدَّعون أو ما ينسب إليهم من حق الله.

ويدخل في ذلك بغض الطواغيت وأتباعهم ومللهم وكراهتهم والبراءة منهم ومما يعبدون وعداوتهم(٩).

وقد بين الله تعالى أهمية الكفر بالطاغوت وكيفيته وممن يكون في سياقٍ واحدٍ في سورة «الممتحنة» فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۖ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا

حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ (الممتحنة: ٤-٦).

فقوله تعالى في أول السياق: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..» وفي آخر السياق: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيْهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..» بيان لأهمية هذا الأمر وتأكيد له وأنه من الأسس التي تقوم عليها الحنفية ملة إبراهيم عليه السلام. وأن الكفر بالطاغوت والبراءة من الشرك وأهله لازم لمن أراد أن يلقى الله وهو راض عنه فيفوز في اليوم الآخر.

وفي قوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان لكيفية الكفر بالطاغوت وأنها تكون بجحدٍ وتكذيبٍ ما هم عليه من الشرك والعقائد الباطلة، وإظهار العداوة والبغضاء لهم.

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ بيان لغاية الكفر بالطاغوت وأنها مستمرة مادام الكافر على كفره، لاحد لها إلا رجوعه عن باطله.

فالكفر بالطاغوت والبراءة من الشرك وأهله أساس هام للإيمان بالله، وخطوة مقدمة لتطهير القلب، وتهيئته لاستقبال الإيمان وعقائده المباركة.

* * *

الهوامش:

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ج ١٩/٣ مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه. مصر، ط الثالثة ١٣٨٨هـ.
والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني أبي القاسم الحسين بن محمد، تحقيق: محمد سيد كيلاني ص ٣٠٤. دار المعرفة بيروت. ط، ت. بدون.

(٢) رواهما مسلم. كتاب الإيمان. باب الأمر بقتال الناس... ح (٢٣) ج١/٥٣.

(٣) الشيخ العلامة سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. صنف تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد. وأوثق عرى الإيمان. قتل رحمه الله سنة ١٢٣٣هـ. على يدي إبراهيم باشا بعد استيلائه على الدرعية.
انظر: الأعلام للزركلي ١٩١/٣ ومشاهير علماء نجد ٤٤.

(٤) تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ١٣٩. المكتب الإسلامي ط الثالثة، ١٣٩٧هـ.

(٥) انظر: جامع البيان لابن جرير ج ١٨/٣-١٩. والتفسير الكبير لمحمد بن عمر الرازي ج ١٦/٧. دار الكتب العلمية طهران. ط الثانية ت بدون.

(٦) الإمام الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري صنف التفسير والتاريخ وتهذيب الآثار. توفي سنة ٣١٠هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤، البداية والنهاية ١٥٦/١١.

(٧) جامع البيان لابن جرير ج ١٩/٣.

(٨) سيأتي بيان الأمور التي تفرد الله بها عند الكلام على الأساس الثاني: «الإيمان بالغيب».

(٩) انظر: مجموعة التوحيد: مجموعة رسائل لنخبة من علماء المسلمين، الرسالة الأولى ص ١١، ط. السلفية. وانظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد ابن عبد الوهاب ص ٣٤.

* * *

خالد بن صفوان بن الأهتم[1] يعظ هشام بن عبد الملك

بقلم: الأستاذ/ خالد سيد علي

قال خالد بن صفوان بن الأهتم: أوفدني يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك في وفد العراق فقدمت عليه وقد خرج مبتديًا بقرابته وأهله وحاشيته وغاشيته من جلسائه فنزل في أرض قاع صحصح متنايف أفيح في عام قد بكر وسميه وتتابع وليه وأخذت الأرض فيه زينتها من اختلاف ألوان نبتها من نور ربيع مونق فهو في أحسن منظر وأحسن مختبر مستمطر بصعيد كأن ترابه قطع الكافور حتى لو أن قطعة لحم ألقيت فيه لم تترب.

وكان قد ضرب له سرادق من حبرة كان صنعه له يوسف بن عمر باليمن فيه أربعة أفرشة خز أحمر مثلها مرافقها وعليه دراعة من خز أحمر مثلها عمامتها وقد أخذ الناس مجالسهم فأخرجت رأسي من ناحية السماط فنظر إلي المستنطق لي، فقلت له:

أتم الله تعالى عليك يا أمير المؤمنين نعمه، وسوغكها بشكره، وجعل ما قلدك من هذا الأمر رشدًا وعاقبة ماتؤول إليه حمدًا، وخلصه لك بالتقى وكثره لك بالنماء لا كدر الله تعالى عليك من ما صفى، ولا خالط سروره الردى؛ فقد أصبحت للمسلمين ثقةً ومستراحًا إليك يفزعون في مظالمهم وإليك يلجؤون في أمورهم.

وما أجد شيئًا يا أمير المؤمنين – جعلني الله فداك – هو أبلغ في قضاء حقك وتوفير مجلسك مع ما منَّ الله تعالى علي به مجالستك والنظر إلى وجهك من أن أذكر نعمة الله تعالى عندك وأنبهك على شكرها وما أجد في ذلك شيئًا هو أبلغ من حديث من تقدم قبلك من الملوك فإن أذن لي أمير المؤمنين أخبرته.

وكان متكئًا فاستوى جالسًا، فقال:

هات يا ابن الأهتم؟

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن ملكًا من الملوك خرج قبلك في عام مثل عامنا هذا إلى الخورنق والسدير في عام قد بكر وسميه وتتابع وليه وأخذت

مجلة الداعي، جمادى الأولى ١٤٤٦هـ = نوفمبر ٢٠٢٤م، العدد: ٥، السنة: ٤٩

الأرض فيه زينتها من اختلاف ألوان نبتها من نور ربيع مونق، فهو في أحسن منظر وأحسن مخبر وأحسن مستمطر بصعيد كأن ترابه قطع الكافور حتى لو أن بضعة لحم ألقيت فيه لم تترب.

وكان قد أعطى منى النفس مع الكثرة والغلبة والنماء.

ونظر فأبعد النظر فقال:

لمن هذا الذي أنا فيه؟

هل رأيتم مثل ما أنا فيه؟

هل أعطى أحد مثل ما أعطيت؟

وعنده رجل من بقايا جملة الحجبة والمصر على أدب الحق ومنهاجه فقال له:

أيها الملك: إنك قد سألت عن أمر أفتأذن في الجواب؟

فقال: نعم.

قال: أرأيتك هذا الذي أعجبت به:

أهو شيء لم تزل فيه، أم هو شيء صار إليك ميراثًا عن غيرك وهو زائل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك؟

قال: كذلك هو.

قال: أفلا أراك إنما أعجبت بشيء يسير تكون فيه قليلًا وتغيب عنه طويلًا وتكون غدًا بحسابه مرتهنًا.

قال: ويحك! فأين المهرب وأين المطلب؟

قال: إما أن تقيم مع ملكك فتعمل فيه بطاعة الله ربك على ماساءك وسرك ومضك وأرمضك، وإما أن تضع تاجك وتضع أطمارك وتلبس أمساحك وتعبد ربك في هذا الجبل حتى يأتيك أجلك.

قال: فإذا كان السحر فاقرع علي بابي فإن اخترت ما أشرت به كنت وزيرًا لا يعصى وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد كنت رفيقًا لا تخالف، فلما كان السحر قرع عليه بابه فإذا هو قد وضع تاجه وخلع أطماره ولبس أمساحه وتهيأ للسياحة فلزما – والله – الجبل حتى أتتهما آجالهما.

وذلك حيث يقول أخو بني تميم عدي بن زيد العبادي المرادي[٢]:

أيها الشامت المعير الدهر
أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من
الأيام بل أنت جاهل مغرور

من رأيت المنون خلدن أم من
ذا عليــه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أبو
ساسان أم أين قبله سابور[٣]
وبنو الأصفر الكرام ملوك
الــروم لم يبق منهمو مذكور
وأخو الحصن إذ بناه وإذا
دجلــة تجبى إليــه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلسا
فللطــير في ذراه وكــــور
لم يهبه ريب المنون فباد
الملك عنــه فبابــه مهجـور
وتأمل رب الخورنق إذ
أشرف يومًا وللهــدى تفكـير
سره حاله وكثرة مايملك
والبحــــر معـرض والسدير
فارعوى قلبه فقال وما
غبطــة حي في الممات يصــير
ثم بعد الفلاح والملك والأمة
وارتهم هنــــاك القبــــور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف
فألوت بــــه الصبا والدبــور

قـال فبكـى هـشام حتـى اخـضلت لحيتـه وبـل عمامتـه وأمـر بنـزع أبنيتـه وبـنقلان قرابتـه وأهلـه وحشمه وغاشيته من جلسائه ولزوم قصره.

قال: فاجتمعت الموالي والحشم على خالد بن صفوان فقالوا:

مـا أردت إلى أمـير المـؤمنين نغـصت عليـه لذتـه وأفسدت عليه مأدبته؟

فقال لهم: إليكم عني؛ فإني عاهدت الله عهدًا أن لا أخلو بملك إلا ذكرته الله عز وجل[٤].

* * *

الهوامش:

(١) خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري، من فصحاء العرب المشهورين، كان يجالس عمر بن عبدالعزيز وهشام بن عبد الملك، ولد ونشأ بالبصرة، وكان أيـسر أهلهـا مـالًا، ولم يتـزوج. عـاش إلى أن أدرك خلافـة السفاح وحظي عنده، وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه، وكان يرمى بالبخل وكف بصره، توفي نحو سنة ١٢٣هـ. الأعلام.

(٢) عدي تميمي، ويقال السروي: نسبة للسراة.

(٣) المشهور: كسرى الملوك أنوشروان.

(٤) الذهب المسبوك ص ١٨٣-١٨٦.

* * *

الذين يسعون إلى الهلاك والدمار

بقلم: الدكتور/ عمر سليمان الأشقر

نعجب أشد العجب إذا رأينا من يبذل جهده وماله فيما لا يعود عليه بالخير، وقد يعود عليه بالضرر.

فإذا رأينا شخصًا يصيد السمك من البحر، ثم يرميه في البحر مرةً أخرى بعد أن بذل في صيده جهدًا كبيرًا، وإذا رأينا شخصًا يبذل مالًا كثيرًا ثمنًا لأفاعي وعقارب لا يكاد يدخلها داره حتى توسعه وأهله نهشًا ولسعًا، وإذا رأينا من يشتري دارًا آيلةً للسقوط بثمن كبير لا يكاد يبيت فيها وأهله حتى تنهار فوق رؤوسهم – إذا رأينا هؤلاء وأمثالهم فإننا نعجب من حالهم كثيرًا، ونتوجه إليهم باللوم والتأنيب.

وقد وجه الله أنظارنا إلى أمثال هؤلاء، فاليهود الذين كانوا يسكنون المدينة نقضوا عهودهم، فأذاقهم الله عاقبة مكرهم، ووصل بهم الحال إلى أن هدموا بيوتهم بأيديهم لكيلا يستفيد المسلمون منها ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[1].

والسبب الذي يجعل بعض الناس يبذلون جهودهم وأموالهم في أمور لا تعود عليهم بالخير، وقد تعود عليهم بالشر – يرجع إلى ضعف في العقل، أو قصور في العلم، فبعض الناس يتصرفون تصرفات الحمقى؛ لأنهم فقدوا عقولهم أو لأن في عقولهم نقصًا وآخرون يظنون أن فيما يقومون به من أعمال خيرًا، وواقع الأمر أنها شر كلها، والأعجب من كل هذا أن يكون عند الناس العقول، ويأتيهم من يعرفهم بالخير والشر، ومع ذلك فهم يقدمون على أعمال تدمرهم وتهلكهم.

لقد جاءت الرسل من عند الله إلى البشر على امتداد العصور ترسم لهم الطريق الذي يحقق لهم السعادة والهناء، ودعتهم إلى سلوك هذا الطريق، وحذرتهم من الانحراف عنه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2].

والسبيل يتمثل بما شرعه الله لعباده في العقائد، وفيما شرعه من عبادات، وفيما أحله وأباحه، وتجاوز ذلك كله أو بعضه انحراف عن الطريق وتعدّ لحدود الله.

والسير في الصراط المستقيم يتمثل في أعمال تبذل، وأقوال تنطق، وتفكير ومعاناة، والانحراف عن الصراط المستقيم يتمثل في ذلك أيضًا، إلا أن ما يبذله الإنسان في السبل المنحرفة عن النهج الإلهي المستقيم يعود على الإنسان بالدمار.

انظر إلى حال الذين يتعدون الحلال إلى الحرام، يتركون الطيبات من الطعام والشراب ويتناولون الحرام كالذين يشربون الخمر ويأكلون الخنزير والميتة، إنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويشترون صفقةً خاسرةً تعود عليهم بالضرر في عقولهم وأبدانهم، وتكسبهم صفاتٍ خبيثةً تدنس نفوسهم.

والذين يتركون الزواج المشروع إلى الزنا واللواط، والذين يتجاوزون ما أحله الله من الكسب المشروع إلى ما حرمه من الاتجار بالحرام، والتعامل بالربا، والذين ينتهكون أعراض المسلمين وينشرون بينهم الفاحشة باسم الفن والتمدن، فتخرج النساء متبرجات في الشوارع وأفلام السينما وعروض المسرح يتمايلن ويغنين ويرقصن، أو يظهرن في دعاية لسلعة أو خدمة – كل هؤلاء يبذلون جهدًا ومالًا في غير محله، وهو يعود عليهم بالضرر.

وهذا الضرر يشاهد في كثير من الأحيان ويلمس، نشاهده في الأضرار التي تصيب الأجساد والمجتمعات بحيث تنشر الأحقاد والعداوة والبغضاء ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾(٣).

وهذا ما عبّر عنه القرآن بظلم الإنسان لنفسه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾(٤). ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٥).

ثم هذا التعدي يصيب الإنسان بالشقاء النفسي، ذلك أن الابتعاد عن منهج الله يقسي القلب، ويخبث النفس، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(٦).

وأعظم من ذلك كله أن تعدّي حدود الله وشرعه يجلب غضب الله تعالى، وقد ينزل الله عقابه بالظالمين ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ

مَّشِيدٍ﴾[٧]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[٨].

وعندما ينزل العذاب بسبب ظلم العباد تذهب السكرة وتأتي الفكرة، ويقع الاعتراف بالذنب ولكن حيث لا ينفع الاعتراف ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾[٩].

هذا في الدنيا، أما العقوبة لمن تعدى حدود الله في الآخرة فهي عقوبة رهيبة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾[١٠].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١١].

إن الذين يسعون ليلهم ونهارهم ضاربين في هذه الحياة بمنهج غير منهج الله يكدون ويكدحون في العبادة والتجارة والصناعة، في سبيل متع الحياة ولذاتها إنما يسعون في إهلاك أنفسهم.

ونحن ندعوهم إلى الإسلام، إلى الصراط المستقيم، ندعوهم إلى أن ينطلقوا في هذه الحياة آخذين الأمور من حيث يريدها الله، في الفكر والعقيدة، في العبادة والسلوك، في القيم والأخلاق، في التجارة والزراعة وكسب المال، في الطعام والشراب واللباس، ندعوهم إلى ذلك؛ لأن في ذلك خيرًا لهم، في الدنيا والآخرة؛ ولأنَّ في ذلك صلاحًا لأجسادهم وتزكيةً لنفوسهم؛ ولأن في ذلك صلاحًا لهذا الكون الذي يعيشون فيه، وصلاحًا للمجتمع وهم جزء منه ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[١٢]. ندعوهم إلى ذلك، ونحذرهم من الانحراف خشية أن يصيبهم ويصيبنا غضب الله ومقته ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾[١٣]. وقد قالت عائشة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: «نعم إذا كثر الخبث».

لقد جاءَت الرسل يدعون إلى الله وإلى طريقه ويحذرون البشرية من تعدّي حدوده، ويقيمون الحجة عليهم بذلك.

ونحن اليوم علينا أن نعيد دعوة الرسل غضةً طريةً، نطالب الناس بالاستجابة لله، ونضعهم أمام مفرق طريق، نقول لهم: الربا رجس، والزنا جريمة، وترك الصلاة إثم كبير، وتبرج المرأة فسق... وذلك كله إثم ومعصية لله، ونحن ندعوكم إلى الله وترك ذلك كله، علينا أن نترك التعليل وبيان الأسباب؛ لأن أعظم سبب ينبغي أن يقود الناس إلى الأعمال الصالحة ويردهم عن الأعمال السيئة كونها من عند الله أمر بها أو نهي عنها، وهذا الطريق الحق يتبين بأيسر جهد. أما بيان العلل والمصالح فإنه طريق طويل خاضع للأخذ والعطاء، والنقاش والخصام، وهذا السبيل يصلح مع الذين يريدون التعرف على الحكم بعد إيمانهم وتسليمهم بها.

نحن في مجتمعنا ركاب سفينة واحدة، والذين يتجاوزون حدود الله يريدون صدع السفينة، وبذلك يهلكون غيرهم، ومن الحمق والسفاهة أن يقول قائل: دعوهم مالكم ومالهم، لكل إنسان حريته، علينا أن نكون (ديموقراطيين)، لا يجوز أن نحجر على عقول الناس وأعمالهم، من يقول ذلك لاشك في حمقه، وسيعلم أنه أحمق عندما يندفع الماء من حيث أفسد المفسدون، فيجدون أنفسهم في لجة البحر، حيث لا يسمع صريخهم سامع، ولا ينقذهم منقذ، عند ذلك يعلمون أن ما فعله أولئك لم يكن حريةً؛ بل فساد، لقد كان جريمةً، وكان الواجب الأخذ على أيدي المفسدين، علينا أن نفيق قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم، وعند ذلك يكون حالنا حال أولئك الذين قصّ علينا حديثهم ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾(١٤).

* * *

الهوامش:

(١) سورة الحشر: ٢.
(٢) سورة الأنعام: ١٥٣.
(٣) سورة المائدة: ٩١.
(٤) سورة الطلاق: ١.
(٥) سورة البقرة: ٢٢٩.
(٦) سورة طه: ١٢٤.
(٧) سورة الحج: ٤٥.
(٨) سورة الطلاق: ٨-٩.
(٩) سورة الأنبياء: ١١-١٥.
(١٠) سورة طه: ١٢٤-١٢٧.
(١١) سورة النساء: ١٤.
(١٢) سورة الروم: ٤١.
(١٣) سورة الأنفال: ٢٥.
(١٤) سورة الأنبياء: ١٤-١٥.

* * *

صور عنيفة لمواقف الكافرين من الدعوة والداعية

بقلم: الشيخ/ عبد الغني مير غني

كانـــت مواقـــف الكـــافرين مـــن النبـــي ﷺ ودعوتـه مواقـف سـلبية وعدوانيـة طيلة العهد المكي. فقد أخذت الدعوة منذ البداية تصطدم بالإنكار والاستنكار والصد والتكذيب. ولقي الرسول ﷺ في سبيلها أشد العنت وأقسى الأذى، وهو صابر على المكروه، ثابت على الحق، لم يجزع ولم يمل؛ بل تحمَّل كل شيء في هذا السبيل مرضاة الله تعالى. وسنرى في كل موقف نقدمه من مواقف الذين كفروا من الرسول ودعوته في مكة شاهد صدق على هذا الذي قلناه.

وفي هذا المبحث سنقدم نوعين من المواقف:

١- صـورة مـن دور الأشـخاص في المنـاوأة والتكذيب.

٢- صـور أخـرى مـن مواقـف الجاحـدين في الصد والإعراض.

نماذج النوع الأول:

أ- بعض مواقف أبي جهل من النبي ﷺ:

من الذين أشركوا بالله تعالى، وكفروا برسوله ﷺ عمرو بن هشام الذي عُرِفَ في تاريخ الإسلام بأبي جهل، بعد أن كان أبا الحكم؛ وذلك لأنه كان من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ومن أوائل الـذين بـادروا بمنـاوأة النبـي ﷺ وتكذيبه.

فمـن مواقفـه الـشديدة العنيفـة ضـد الرسـول ﷺ ودعوته ما يلي:

١- يتـصدى للنبـي وينهـاه عـن الـصلاة والدعوة:

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[1].

تدل هذه الآيات الكريمة على أنَّ النبي ﷺ قد أخذ يصلي بين أظهر قومه جهرة عند البيت الحرام، وأنه أخذ يتلو القرآن ويدعو إلى الله تعالى على بصيرة، ويأمر بالإخلاص والتوحيد والعمل الصالح واتباع مكارم الأخلاق. فتصدى له شخص ينهاه عن صلاته ودعوته، ويبدو أنَّ هذا الشخص كان من الطغاة المكذبين بالقرآن، المعرضين عن الإيمان، أبطره ما كان له من مال وثروة، وجاه وقوة، فتمرد على أوامر الله تعالى، وشاقق الرسول ﷺ

وظل يتوعده وينهاه عن الصلاة والدعوة.

وقد أجمع المفسرون على أنَّ هذا الشخص المناوئ للنبي ﷺ، الذي تولى النهي والصد، ووقف الموقف العصيب الذي ذكرته الآيات ونَدَّدت به هو أبو جهل.

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته أو لأعفِّرنَّ وجهه في التراب. قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأنَّ على رقبته، قال: فما فجئهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقًا من نار وهولا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ:

«لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»

قال: فأنزل الله عز وجل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة(٢).

وقال الترمذي: حدثنا عبد الله بن سعيد الأشج أخبرنا أبو خالد الأحمر عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ قال ابن عباس: «والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله». هذا حديث حسن غريب صحيح. وفيه عن أبي هريرة(٣).

٢- أبو جهل يهزأ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

رُوي أنه لمَّا نما إلى علم المشركين في مكة أنَّ عدد حراس سقر تسعة عشر، لم تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولم يفكروا في مصيرهم وما ينتظرهم في الدار الآخرة من العذاب الأليم إن ظلوا في غيهم وضلالهم، وإنماتلقوا هذا الأمر العظيم بالتهكم والسخرية والاستهزاء، واتخذوه موضعًا للهزل والمزاح.

قال القرطبي: «قال ابن عباس وقتادة والضحاك: لمَّا نزل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾(٤) قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنَّ خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدهم – أي العدد – والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأسود بن كلدة الجمحى: لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع بمنكبى الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبى الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة، يقولها مستهزئًا. وفي رواية: أنَّ الحارث ابن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، وأكفوني أنتم اثنين. وقيل: إنَّ أبا جهل قال: أفيعجز كل مئة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾(٥) (٦).

٣- أبو جهل يحرِّض على أذى النبي ﷺ:

روى مسلم بإسناده عن ابن مسعود (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِر

جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلمَّا سجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية – فطرحته عنه، ثم أقلبت عليهم تشتمهم. فلمَّا قضى النبي ﷺ صلاته، ورفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال: «اللّهم عليك بقريش» ثلاث مرات، فلمَّا سمعوا صوته، ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته. ثم قال: اللّهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط (وذكر السابع ولم أحفظه)[٧] فوالذي بعث محمدًا ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سَمَّى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر[٨].

٤- أبو جهل يشتم الرسول ﷺ:

قال ابن إسحاق: «حدثني رجل من أسلم، كان واعية: أنَّ أبا جهل مرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومولاة لعبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أن أقبل موشحًا قوسه، فلمَّا مرَّ بالمولاة قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام: وجده هٰهنا جالسًا فآذاه وسبَّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فاحتمل حمزة الغضب، فخرج يسعى حتى أقبل على أبي جهل في فناء الكعبة، فضربه بقوسه فشجه شجةً منكرةً، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فَرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت: فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل. فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا)[٩].

ب- صور من مواقف الوليد بن المغيرة ضد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كان الوليد بن المغيرة المخزومي من طغاة مكة المكذبين الضالين، الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية، وآذوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحاربوه وصدوا عن سبيل الله. فمن مواقفه العنيفة ضد الرسول ودعوته ما يلي:

١- يصم القرآن الكريم بأنه سحر وقول بشر:

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ

أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾[10].

احتوت هذه الآيات الكريمة صورة فرد بذاته من المكذبين، كان يمكر ويكيد بالدعوة والداعية؛ ولعل مما حمله على ذلك ما كان يرى لنفسه من قوة وجاه ومال كثير ممدود، وبنين حوله حاضرين شهودًا. فكفر بأنعم الله، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر والسحر المأثور.

وقد وردت روايات متعددة بأنَّ هذا الشخص المذكور في سياق الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي. قال ابن جرير: «حدثنا عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبادة بن منصور عن عكرمة أنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال له: أي عم! إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا، قال: لم؟ قال يعطونكه، فإنك أتيت محمدًا تتعرَّض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالًا! قال: فقل فيه قولًا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له! قال: فماذا أقول فيه؟ فو الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن! والله ما يشبه الذي يقوله شيئًا من هذا. والله إنَّ لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإنه ليحكم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلمَّا فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ حتى بلغ: ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[11].

٢- حنق الوليد من نبوة النبي ﷺ:

وكان الوليد بن المغيرة ممن يحسدون الرسول ﷺ على إعطائه النبوة؛ لأنها لم تكن نصيب أحدهم في مكة أو الطائف. ولعله كان يطمع – هو نفسه – في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتابًا؛ لأنه صاحب جاه وثراء. ولهذا ظل يظهر غيظه واستخفافه بالنبي ﷺ ويعلن كفره وجحوده بالقرآن، ويصد نفسه وغيره عن سبيل الله.

قال ابن إسحاق: «وقال الوليد بن المغيرة: أينزل على محمد، وأترك وأنا كبير قريش وسيدها! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين! فأنزل الله تعالى فيه، فيما بلغني: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[12][13].

ج- مناوأة النضر بن الحارث للنبي ﷺ:

كان النضر بن الحارث من أشد الناس عداوةً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد رويت عنه مواقف عنيفة في الكيد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والوقوف في وجه الدعوة، والصد عن سبيل الله. وهي مواقف تدل على سوء طويته، وفساد نفسه وخلوها من

الخير. استهزأ بآيات الله، وسخر من رسوله ﷺ واعتدى على الإسلام. ولا غرو، فقد كان شديد العناد، مصرًّا على الضلالة، سيِّئ الأدب في حق الله وحق القرآن الكريم. فمن مواقفه الشديدة ضد النبي ودعوته ما يلي:

قال ابن إسحاق: « والنضر بن الحارث بن علقمة كان إذا جلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلسًا، فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن وحذَّر قريشًا ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام فحدَّثهم عن رستم السنديد، وعن إسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها. فأنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾(١٤). ونزل فيه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾(١٥) ونزل فيه: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾(١٦ (١٧).

د- كيد أبي لهب وامرأته لرسول الله ﷺ:

كان أبو لهب وامرأته(١٨) من المكذبين الضالين، ومن أشد الناس عداوةً للنبي ودعوته. فقد كان يكره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويبغضه ويؤذيه ويزدريه ويسيء إليه، ويحاول الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية بالكيد والمكر والمناوأة والعناد والتكذيب والصد والإعراض، وبكل أسلوب خسيس! وكانت زوجته أم جميل عونًا له على كفره وجحوده وعناده وسيره في طريق اللدد ومجانبة الصواب.

قال ابن إسحاق: «حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد يحدِّثه أبي قال: إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدِّقوا بي وتمنعوني حتى أبيِّن عن الله ما بعثي به» قال: وخلفه رجل أحول وضيء، له غديرتان، عليه حلة عدنية. فإذا فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بني فلان، إنَّ هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه. قال: فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب، أبو لهب»(١٩).

وبمثل هذا الأسلوب العنيف ظل أبو لهب يكيد للدعوة والداعية. ولقد اتخذ موقفه هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ اليوم الأوَّل للدعوة.

روى البخاري بإسناده عن ابن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: لمَّا نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾(٢٠) ورهطك منهم المخلصين، خرج

رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه فقالوا من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أنَّ خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدِّقيَّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يَدَي عذاب شديد. قال أبولهب: تبًّا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾(٢١) (٢٢).

ومن خصال أم جميل السيئة التي جُبِلَت عليها أنها كانت تمشي بالنميمة، وتسعى بالأذى والفتنة والوقيعة، ولعلها كانت تحت زوجها أبا لهب على الكفر والضلالة، وتنفخ فيه روح العداوة والبغضاء للنبي ﷺ كلما جنح للتروي والفتور. وقيل: إنها كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ لإيذائه. ولمَّا نزلت سورة المسد، توهَّمت أنَّ الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد هجاها بشعر؛ فذعرت لذلك، وبلغ منها الغيظ والحنق مبلغًا حملها على مواصلة الإيذاء، والمضي في الكيد والمناوأة والتكذيب.

قال ابن إسحاق: «فذكر لي: أنَّ أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبوبكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلمَّا وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مذممًا عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبوبكر: يا رسول الله، أماتراها رأتك؟ فقال: ما رأتني؛ لقد أخذ الله ببصرها عني»(٢٣).

* * *

الهوامش:

(١) من سورة العلق الآيات: ٦-١٩.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٧ ص ١٣٩-١٤٠.
(٣) سنن الترمذي – وهو الجامع الصحيح – ج٥ ص١١٤-١١٥.
(٤) من سورة المدثر: آية ٣٠.
(٥) من سورة المدثر: آية ٣١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ج١٩ ص٨٠-٨١.
(٧) في رواية البخاري: السابع هو: (عمارة بن الوليد) فتح الباري ج١ ص٥٩٤.
(٨) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٥١-١٥٣.
(٩) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٦٠-٢٦١ بتصرف.
(١٠) من سورة المدثر: الآيات ١١-٣٠.
(١١) تفسير الطبري ج٢٩ ص١٥٦.
(١٢) من سورة الزخرف: آية رقم ٣١-٣٢.
(١٣) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٩.
(١٤) من سورة الفرقان: آية رقم ٥-٦.
(١٥) من سورة الجاثية: آية رقم ٧-٨.
(١٦) من سورة المطففين: آية رقم ١٣.
(١٧) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٧.
(١٨) أبو لهب هو عم النبي ﷺ واسمه عبدالعزى بن عبد المطلب. وامرأته هي أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان.
(١٩) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٥٠.
(٢٠) من سورة الشعراء: آية رقم ٢١٤.
(٢١) سورة المسد.
(٢٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٨ ص٧٣٧.
(٢٣) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٦.

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

والمرء قد يأتي بعمل لايلقي له بالًا، ويرفع الله تعالى به درجات أو يهوي بها في النار، فروى البخاري في صحيحه (برقم:٢٤٨٠) عن أبي هريرة عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم».

وروى البخاري في صحيحه (برقم: ٦٣٠٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُباب مرّ على أنفه فقال به هكذا». فقال أبو شهاب: بيده فوق أنفه.

وما قصة المرأة المومسة التي سقت كلبًا عطشانًا فغُفِرَ لها على ما كانت عليه من البغي والفجور، فقد روى البخاري في صحيحه (برقم:١٤٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «غفر لامرأة مومسة - وفي رواية: بغي من بغايا بني إسرائيل- مرت بكلب على رأس ركي يلهث، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خفها - وفي الرواية الأخرى: موقها-، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فسقته، فغفر لها بذلك».

وعن ابن عمر وأبي هريرة قالا: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «عذبت امرأة في هرة أمسكتها حتى ماتت من الجوع، فلم تكن تطعمها ولا ترسلها فتأكل من خشاش الأرض» متفق عليه.

والأشخاص والرجال أشبه بالأحوال والأعمال؛ فقد تزدري الرجل النحيف وهو عند الله عظيم، وعلى مكانة يغتبط عليها، فروى الإمام أحمد في مسنده (برقم:١٢٤٧٦) عن أنس بن مالك، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ألا أخبركم بأهل النار وأهل الجنة؟ أما أهل الجنة، فكل ضعيف متضعف، أشعث ذي طمرين، لو أقسم على الله لأبره، وأما أهل النار، فكل جعظري جواظ، جماع مناع، ذي تبع».

ويتضمن التراث العربي بنظمه ونثره كثيرًا

من التحذير من الاغترار بالظاهر، والحكمِ بناء عليه، واحتقارِ ظاهر الضعف والنحافة، فيقول العباس بن المرداس (٠٠٠ - نحو ١٨ هـ = ٠٠٠ - نحو ٦٣٩م):

تَرى الرَّجُل النّحيفَ فَتَزْدَرِيْهِ
وَفِي أَثْوابِـــهِ أَسَـدٌ يَزِيرُ
ويُعْجِبكَ الطّرِيرُ فَتَبْتَلِيْهِ
فيُخْلِفُ ظَنّكَ الرَّجُل الطّرِيرُ
وَمَا عِظَمُ الرِّجَال لَهُمْ بِزَيْنٍ
وَلَكِن زَيْنُهَا كَـرَمٌ وخَـيرُ
بُغَاثُ الطّيْر أطْوَلُها جُسُومًا
وَلم تَطلِ الْبُزَاةُ وَلَا الصُّقُورُ

المعنى: لَيست نحافة الرجل دَاعِيَةً إِلَى الاستخفاف بِهِ فلربما تزدريه لذَلِك وَقَلبه فِي الْبَاطِن قلب الْأسد.

ونظر أبو تمام (ت:٢٣١ هـ) إلى قوله: «وتحت الرُّغوةِ اللَّبنُ الصَّريحُ»:

وَلَيْسَتْ رَغوَتي مِنْ تَحْت مَذْقٍ
ولَا جَمْري كَمِيْنٌ فِي الرَّمَادِ

وفي هذا المعنى يقول محمد اليمني الملقب بنجم الدين:

ولا تحتقِرْ كَيْدًا ضَعيفًا فَرُبَّما
تموتُ الأَفاعي مِن سُمومِ العَقَارِبِ
فَقَد هَدَّ قِدْمًا عرشَ بلقيسَ هُدْهُدٌ
وأَخْرَبَ فأْرٌ قبلَ ذا سَدَّ مَأْرِبِ
إِذا كَانَ رَأْسُ المَالِ عُمْرُكَ فَاحْتَرِزْ
عَلَيهِ مِنَ الإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ وَاجِبِ
فَبيْنَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالصُّبْحِ مَعْرَكٌ
يَكُـرُّ عَلَيْنَا جَيْشُـــه بِالعَجَائِبِ

وقال علي بن أحمد بن أبي حريصة اليماني:

أَلا رُب ذِيْ طِمْرَينِ أشْعَث أغْبَرَا
خَفِي عَنِ النظارِ لَمْ يبغِ مَنْظَرَا
وَلَو أَقْسَم الحَافِي الضَّئِيْل رِدَاؤُه
عَلَى اللهِ ذِي النَّعْمَاءِ أَعْطَى فَأَكْثَرَا
وَلِكِنْ زَوَى الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ دُوْنَه
لِيُوفِّيه الحَظَّ الجَزِيْلَ المُوَفَّرا

فمن السفه والطيش والخفة أن تحتقر الضعيف وتفضل السمين عليه، وإن كان السمين سخيف العقل، واهي العزم، مأفون الرأي، ضعيف العقدة، وكليل الحد، وقليل المنة، ومتقاعس الهمة.

* * *

رب عمل عظيمُ القدر وإن قَلَّ وَهَانَ

يحكي لنا كتب التراجم قصةً عجيبةً رائعةً، و هي قصة بشر الحافي المعروف بصلاحه وتقواه وعلو شأنه بين العباد الزهاد في هذه الأمة. فقد قيل له رحمه الله: «ما كان بدء أمرك؛ لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي؟ قال: هذا من فضل الله وما أقول لكم؟ كنت رجلًا عيارًا صاحب عصبية فجزت يومًا فإذا أنا بقرطاس في الطريق فرفعته فإذا فيه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فمسحته وجعلته في جيبي. وكان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غاليةً ومسحته في القرطاس. فنمت تلك الليلة فرأيت في المنام كأن قائلًا يقول: يا بشر بن الحارث! رفعت اسمنا عن الطريق وطيبته لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة! ثم كان ما كان.

دلت القصة على أن العمل - قد يهون في عين صاحبه - وهو عظيم عند الله تعالى؛ لما يزينه من النية الحسنة والإخلاص لله تعالى، فلايستصغر المرء عملًا من أعمال الخير يأتيه. و العمل- وإن هان وقل- عظيم و خير عند الله تعالى إذا أخلص المرء النية فيه وابتغى من وراء ذلك رضوان الله تعالى، وداوم عليه، فروى ابن خزيمة في صحيحه (برقم:١٦٢٦) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان لنا حصير نبسطه بالنهار، ويتحجره رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالليل، فيصلي فيه، فتتبع له ناس من المسلمين يصلون بصلاته، فعلم بهم، فقال: «اكلفوا من العمل ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا»، وكان أحب الأعمال إليه ما ديم عليه وإن قل، وكان إذا صلى صلاةً أثبتها».

(البقية على ص٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري